دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الفكر المعماري العربي الإسلامي : البداية ، التشكل ، التكوين
المصدر:	دورية كان التاريخية
الناشر:	مؤسسة كان التاريخية
المؤلف الرئيسي:	العابد، بديع
المجلد/العدد:	س 4, ع 14
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الشهر:	ديسمبر / صفر
الصفحات:	61 - 86
رقم MD:	454544
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	العمارة الإسلامية، الفكر المعماري، الحضارة العربية، تاريخ العرب، الآثار
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/454544

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفكر المعماري العربي الإسلامي
البداية- التشكل- التكوين

أ.د.م. بديع العابد
رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم
عميد كلية هندسة العمارة "السابق"
جامعة الإسراء– المملكة الأردنية الهاشمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بديع العابد، الفكر المعماري العربي الإسلامي: البداية، التشكل، النشأة– دورية كان التاريخية– العدد الرابع عشر؛ ديسمبر 2011. ص61-86.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

مر الوعي العربي بمرحلة سبات، اعتبارا من بداية القرن السادس عشر الميلادي، وهي الفترة التي بدأ يتحرر فيها الوعي الأوروبي، من سلطة الكنيسة، ومن الحضور العلمي العربي الإسلامي في أوروبا. واستمر هذا الحراك العلمي إيجابيا في أوروبا، وسلبيا في العالم العربي حتى يومنا الحاضر، على الرغم من المحاولات التي بذلت من قبل ما يسمى بمفكري الإسلام[1]، منذ بداية القرن التاسع عشر. لكن الحضور الأوروبي كان يدفع بكل ثقله، العسكري، والاقتصادي، والثقافي، للسيطرة التامة على الأوضاع في العالم العربي، وإعاقة بل منع أي محاولة للخلاص من تبعيته للغرب.

ومع بداية القرن العشرين، نجح الغرب الأوروبي في فرض ثقافته على العالم العربي، من خلال النخبة الثقافية العربية، المؤهلة تأهيلا علميا أوروبيا، وهي التي عنيت بتطبيق سياسة الغرب التعليمية والتربوية والثقافية، في العالم العربي. فنشأت الجامعات العربية[2] الحديثة على نفس النمط الأوروبي، والأمريكي فيما بعد. ونقلت المناهج الأوروبية والأمريكية، لتدرس في الجامعات العربية كافة. حتى أن الكليات العلمية في جامعة الأزهر، وهي الأعرق والأقدم في العالم، طبقت نفس المناهج، فغيب الإنتاج العلمي العربي، على جميع مستوياته، من المناهج التعليمية، وأما ما سمح به: كأدب الأمة وتاريخها فقد درس بمناهج غربية أوروبية، وحلت فلسفة التحقيب التاريخي الغربي بدلاً لفلسفة التاريخ العربي الإسلامي القائمة على: التواصل التاريخي، والدروس والعبر، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة. فجزء التاريخ العربي الإسلامي إلى دويلات، ونتيجة لذلك، جزء وحقب[3] تاريخ الأمة العربية، وحقبت أدابها وفنونها وعمارتها. فأصبح هناك أدب جاهلي، وأموي، وعباسي أول وثاني، وطولوني، وفاطمي، وأيوبي، ومملوكي... إلخ. وانسحب الأمر على الفنون والعمارة فجزأت وحقبت العمارة وصنفت إلى طرز، وأصبح لكل حقبة تاريخية طرازها الخاص، كالطراز الأموي، والعباسي، والطولوني، والفاطمي، والأيوبي، والمملوكي، والعثماني.

أما تدريس العمارة الإسلامية فانحصر في مادة تاريخ العمارة، وبشكل جزئي. ففي الجامعات المصرية على سبيل المثال، وهي الرائدة في العالم العربي، كانت العمارة الإسلامية تدرس في السنة الأولى، أي السنة الثانية حسب البرامج الدراسية المعاصرة، لأن السنة الأولى في الجامعات المصرية كانت تسمى بالسنة الإعدادية. وكانت مادة تاريخ العمارة للسنة الأولى تشمل تدريس العمارة المسيحية والإسلامية. وكان حظ العمارة الإسلامية خمس الوقت المخصص للمادة، أما الأربع أخمس الأخرى فهي للعمارة المسيحية التي كانت مقسمة إلى أربعة طرز: فجر المسيحية، والبازيليكية، والرومانسية، والغوطية.

أما باقي مواد المنهج الدراسي فكانت غريبة [4] شكلا وموضوعا. فنظريات العمارة غربية، وبيانات التصميم غربية، وأشكال التصميم غربية، ومواد البناء غربية، وتقانات البناء غربية، ومناهج التفكير غربية. و"الإبداع" عند المعماريين العرب ما هو إلا تقليد للنماذج والتصاميم الغربية، وأبحاث أعضاء هيئة التدريس في كليات العمارة غربية. أما الأبحاث في العمارة الإسلامية فتتم ضمن منهجيات ورؤى وتفسير المستشرفين، القائمة على التحليل الشكلي للأعمال المعمارية العربية والإسلامية، وتغييب الجسم النظري، أو الفكر المعماري، الذي حكم عملية إنتاجها. وهم بهذه المنهجيات يختصرون العمارة الإسلامية من عمارة مورست في حيز الوعي، وبأرقى منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام، إلى عمارة مورست بغير وعي، وبمنهجية التجربة والخطأ.

أما المحاولات الجادة التي تناولت العمارة الإسلامية من مصادرها فهي نادرة جدا. وإذا استثنيت دراساتي وأبحاثي الشاملة– التي عرضت للفكر المعماري العربي الإسلامي وحددت بدايته، ووضحت مراحل تشكله، وبنيت اكتمال بنيته كمنظومة فكرية، بمنهجية شاملة وصارمة اعتمدت على المصادر العربية والإسلامية، ضمن رؤى ومفاهيم ومناهج فلسفة التاريخ(5) العربي الإسلامي، وخارج نطاق منهجيات ورؤى الاستشراق– فإن باقي الأبحاث كانت أحادية التكافؤ، بمعنى أنها غير شاملة، وعالجت موضوعا واحدا هو أحكام البنيان، فاعتمدت بذلك على مصدر واحد، هو الشريعة الإسلامية. وهذا الإسهام على محدوديته في غاية الأهمية، لكنها لا يغطي المجال الواسع للعمارة الإسلامية، ولا مواضيعها المتعددة وجوانبها المتشعبة، وبالنتيجة لا يرتقي بفكرها إلى الشمولية والتعميم.

وهذه الدراسة مثال على الشمولية، فهي تعالج المواضيع والجوانب المتعددة للفكر المعماري العربي الإسلامي. كما أنها خروج على مناهج ورؤى الاستشراق، وطروحات ما بعد الحداثة، وهما المصدران اللذان نهل منهما الأكاديميون والمعماريون الممارسون العرب والمسلمون، مفاهيم العمارة الإسلامية.

فالأول، الاستشراق، عمد إلى تفسير العمارة الإسلامية ضمن فلسفة التاريخ الغربي القائمة على التحقيب التاريخي، والتحليل الشكلي، وتقسيم العمارة الإسلامية إلى طرز، واختصار ممارسة عمارتنا العربية الإسلامية إلى ممارسة غير عقلانية تتم بمنهجية التجربة والخطأ، وليس بمنهجيتي التفكر والتأمل، والأحكام، والأخيرة هي أرقى[6] منهجيات التصميم المعماري. فخرج تفسير الاستشراق[7]، الممارسات المعمارية من حيز الوعي إلى حيز اللاوعي، مع تغييب متعمد للفكر المعماري العربي الإسلامي، فغيبت أحكام البنيان، وبيانات التصميم، والمفاهيم الوظيفية، ونظريات التصميم البيئي، ومفاهيم الجمال، وتقانات البناء "الصديقة للبيئة"... إلخ. وبهذا تم تغييب وعينا بالكامل، عن إنجازاتنا الحضارية، والمعمارية منها بصفة خاصة. أما الثاني، أي طروحات ما بعد الحداثة(8) التي سادت منذ سبعينيات وحتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين، فكانت أكثر خطورة على العمارة الإسلامية من الاستشراق، إذ عمدت ممارساتها العملية إلى تشكيل وعي الأكاديميين والمعماريين الممارسين بمفاهيم زائفة عن العمارة الإسلامية، بعد أن دعت إلى استعمال وتبني عناصر "محلية" أو

"تراثية" في إنتاج العمارة المعاصرة أي عمارة ما بعد الحداثة، ولكن بعد تشويهها، بنفخها، وتعظيم حجمها، وعدم اكتمال شكلها، والقضاء على خصائصها الجمالية، وذلك باسم التطوير والثورة على المعايير، والقيم، ومنظومات الجمال السائدة.

فعززت طروحات ما بعد الحداثة مناهج الاستشراق وأهدافه، وغيب الفكر المعماري العربي الإسلامي تغييبا كاملا، خاصة بعد أن أقبل الأكاديميون والمعماريون الممارسون العرب على توظيف هذه الطروحات في التدريس، والممارسة العملية، فأجهضت محاولات إعادة بناء وتوظيف الفكر المعماري العربي الإسلامي الجادة في هذه الفترة. وزاد الأمر سوءا أن طروحات ما بعد الحداثة أضافت جهلا إلى جهلهم بالعمارة الإسلامية، وأحدثت تشويها في مفاهيم العمارة الإسلامية، وفي النسيج المعماري للمدن العربية والإسلامية، تعذر إصلاحه أو الخلاص منه. واللافت للنظر، وكالعادة، فإن جميع الذين تبنوا عمارة ما بعد الحداثة من أكاديميين ومعماريين ممارسين، قد تنصلوا منها بعد أن أعلن أسيادهم في الغرب الأمريكي والأوروبي موتها، وميلاد حركة التفكيك. ولحسن الحظ فإن عمارة التفكيك لم تتبنى توظيف العمارة المحلية أو "التراثية" بل دعت إلى قطيعة تامة، لا رجعة عنها، مع كل ما سبقها من حركات معمارية، محطمة لكل المناهج العلمية، والقيم الاجتماعية، والجمالية، والتقانية؛ مرتكزة إلى جذور تلمودية قبالية يهودية[9]، فرضتها على الواقع الإنساني، والثقافي العالمي، بعد أن وظفت ما بعد الحداثة للتمهيد لتحطيم هذا الواقع.

ولما كان المثقفون العرب، منهم الأكاديميون والمعمارية، الممارسون، قد امتهنوا اجترار المعرفة لا إنتاجها، فغيب الفكر المعماري العربي الإسلامي تغييبا كاملا، من خلال الحضور المتواصل للثقافة الغربية، ومن خلال التبعية المطلقة للثقافتين: الأوروبية الغربية الرأسمالية، والأوربية الشرقية الماركسية، وأتباع الأولى يعرفون باليمنيين، أما اتباع الثانية فيعرفون باليساريين، وأما القلة القليلة من المنتمين إلى الثقافة العربية الإسلامية فهم غير مؤثرون.

وإذا قصرت كلامي على الواقع المعماري، فإن المعماريين العرب، من أكاديميين وممارسين، من أتباع الثقافة الأوروبية الغربية، حتى المؤهلين منهم من منظومة الدول الشيوعية السابقة، التي كانت تعرف بالاتحاد السوفياتي، وإن كان تأهيلهم ثقافيا ماركسيا، فإن تطلعاتهم وثقافتهم المهنية، على محدوديتها، أوروبية غربية. وأما القلة القليلة من أمثالي وإن نجحت في إسماع صوتها العربي الإسلامي الأصيل في الوسط المعماري إلا أنها مازالت تنحت في الصخر. أمام هذه الأسباب المتصلة، والحبال المنعقدة، للحضور المعماري الأوروبي الغربي في العالمين العربي والإسلامي الذي بدأ بترويج العمارة الكلاسيكية اليونانية والرومانية، عبر مراحل تطورها وممارستها الأوروبية في القرن التاسع عشر. ثم عمارة الحداثة بمدارسها المختلفة، ثم عمارة ما بعد الحداثة، والتفكيك، في القرن العشرين، وأخيرا مفاهيم الاستدامة كمنتج غربي، على الرغم من أنها عربية إسلامية نشأة وتكوينا وتطبيقا.

أمام هذه التبعية الأكاديمية والمهنية للمعماريين العرب، بالعمارة الغربية، وانبهارهم بها فإن هذه الدراسة معينة بإعادة تشكيل الفكر المعماري العربي والعربي الإسلامي موضحة بذوره، بل جذوره الأولى في عمارة: الحضارة المصرية القديمة، والحضارات السامية التي نشأت على الأرض العربية، كالسومرية، والأكادية، والبابلية، التي أنتجت شريعة حمورابي (1742- 1792 ق.م)، وكذلك في عمارة العرب البائدة كعاد وثمود. ثم تعرض الدراسة لبداية الفكر المعماري العربي الواعية في الشعر الجاهلي، التي ارتقى بها القرآن الكريم إلى مشروع فكري تحت التأسيس، إنما وتشكل في رحم الحضارة العربية الإسلامية، ليكون فكرا معماريا واعيا ذو إطارين: الأول خاص بدراسة الظاهرة المعمارية، والثاني خاص بممارستها.

الأهداف والمنهجية

تهدف هذه الدراسة إلى عرض وتوضيح الفكر المعماري العربي، والعربي الإسلامي، وإبراز خصائصه، وعناصره، ومقومات بنيته، منذ بدايتها، وعبر مراحل تشكلها، وحتى اكتمال تكوينها. والدراسة معنية بتوضيح الإطار القيمي لهذه البنية، وبيان استمراره وتواصله كإطار مرجعي واضح، يهدف إلى تعميق الوعي بالذات، وإلى خلق حضور فكري معماري عربي إسلامي، يمكن توظيفه في التعليم المعماري، وفي الممارسات المعمارية المعاصرة والمستقبلية، الأمر الذي يجعلنا نتجه إلى المستقبل بأرضية ثابتة وبخلفية غنية بالأفكار والتجارب. ولما كان التاريخ العربي ضاربا في القدم، تعود جذوره إلى أسلافنا الساميين العرب، الذين أسسوا حضارات ما بين النهرين: كالسومريين، والأكاديين، والبابليين، وإلى المصريين القدماء، الذين أسسوا الحضارة الفرعونية (المصرية القديمة)، حيث تعود بداية تاريخ هذه الحضارات إلى حوالي سنة 3000 ق.م.

فإن الدراسة ستتلمس جذور الفكر المعماري في هذه الحضارات، وفي الحضارات العربية الصريحة العروبة، المتمثلة في حضارات العرب البائدة، كأقوام عاد، وثمود، والعمالقة، وجرهم، وطسم، وجديس... إلخ، والعرب العاربة من القحطانيين في اليمن. وستبين الدراسة كيف تواصلت المنجزات المعمارية لهذه الحضارات في الفكر المعماري العربي الإسلامي، على أن الدراسة معنية بعرض البداية الواعية للفكر المعماري في الشعر الجاهلي في الجزيرة العربية بأقاليمها الجغرافية الخمسة: السراة، الحجاز، تهامة، نجد، واليمن. ولتحقيق ذلك فإن الدراسة ستعرض للمفاهيم المعمارية التي جاءت في الشعر الجاهلي، الذي وثق هذه البداية، التي ارتقى بها القرآن الكريم، إلى مشروع فكري تحت التأسيس، حيث عرض لمنظومة مفاهيم عامة للفكر المعماري، ترك أمر تفصيلها وتأطيرها نظريا، للفقهاء والمفكرين المسلمين، الذين شكلوا عناصر الفكر المعماري بإسهامهم، وارتقوا به إلى مرحلة تكوينه كظاهرة علمية ومنظومة فكرية.

فالدراسة إذن معنية وتوضيح الفكر المعماري العربي الإسلامي وما وصل إلينا من جذوره السامية العربية، والعربية البائدة، وبمرحلتيه الحضارتين: العربية الجاهلية التي وثقت في الشعر الجاهلي، والعربية الإسلامية التي رسم حدودها القرآن الكريم، وفصلتها المصادر العربية الإسلامية: الدينية، والأدبية، والجغرافية، والتاريخية، والعلمية، والمعمارية، ولكي يتأتى ذلك، وقبل أن أعرض للجذور التاريخية، ينبغي أن أعرف كلا من العمارة والفكر المعماري لتوضيح منهج هذه الدراسة.

العمارة

هي فن تطويع الإنسان للبيئة ضمن أحياز محدودة باستخدام تقانات البناء، على أن تفي هذه الأحياز بحاجات المستعملين الاجتماعية والنفسية.

الفكر المعماري

أما الفكر المعماري في رأيي فهو: جملة الأفكار، والآراء، والمفاهيم، والقيم، والأحكام، والقوانين، التي يتم التعبير بها، ومن خلالها، عن الظاهرة المعمارية، وتحديد خصائصها، ومميزاتها. كما يتم بواسطته تحديد تقانات تطويع البيئة، وتحقيق القيم الاجتماعية والجمالية، وإنتاج العمل المعماري.

بهذا يتضح لنا أن الفكر المعماري عبارة عن محتوى وأداة. أما المحتوى فهو الجانب النظري، وأما الأداة فهي الآلية الفكرية التي تستخدم في الإنتاج. أي أن الفكر المعماري يتضمن نظرية وممارسة. من هنا سأنطلق في هذه الدراسة، محاولا أن أبين مكونات هذا المحتوى، وآلية هذه الأداة. ولتحقيق ذلك يتوجب أن نفكر من داخل الثقافة التي ينسب إليها الفكر، أي من داخل الثقافة العربية الإسلامية، وبواسطتها كإطار مرجعي بنظاميها: العقدي والمعرفي وبمنجزاتها الثقافية، ومحيطها البيئي، وفلسفة تاريخها، ونظرتها المستقبلية. وذلك لأن الصراع الحضاري في العالم العربي حسم لصالح الحضارة العربية الإسلامية. وسأحاول على مستوى المنهج استنفار المبادئ، والقيم، والمعايير، والمفاهيم الثقافية، لمعرفة رصيدنا الفكري المعماري، وسأضطر إلى الرجوع للتاريخ لمعرفة بداية وعناصر هذا الفكر، وتشكل موضوعاته، والكيفية التي عرضت ووظفت بها، وذلك لترتيب أو إعادة العلاقة بينها.

أما على مستوى التقانة المنهجية، فهناك أسلوبان أو طريقتان، لمعرفة مكونات محتوى الفكر المعماري وآليته. الأول يتخذ من الأدبيات الحضارية مصدرا وإطارا مرجعيا لمعرفة هذه المكونات. والثاني يعتمد على اشتقاق مكونات المحتوى واستقرائها من الأشكال المعمارية لحضارة معينة. وكما وضحت في المنهج، فسأعمد إلى الأسلوب الأول للتعرف على محتوى الفكر المعماري وأليته. وذلك لأن العمارة العربية الإسلامية نتاج حضارة راقية، مورست بوعي، وطبقا لمفاهيم، ومبادىء، وقيم، وأحكام، أي طبقا لجسم نظري أو نظريات وأحكام حكمت إنتاج العمل المعماري. وكذلك أيضا لأن الأدبيات العربية الإسلامية استعملت الأسلوب الثاني في دراستها المعمارية للحضارات المنقرضة كحضارات ما بين النهرين والمصرية القديمة، والحضارة العربية في اليمن.

بهذا أكون قد مهدت الطريق للدخول مباشرة لعرض الفكر المعماري العربي، والعربي الإسلامي، لتحديد معالم بدايته، ورصد مراحل تشكله وتطوره، حتى اكتمال تكوين بنيته. وسأبدأ بالجذور التاريخية السامية، والمصرية القديمة والعربية، ثم انتقل إلى بدايته الواعية في الشعر الجاهلي، ثم إلي إعادة تشكيل وصياغة هذه البداية في القرآن الكريم، كمشروع فكري تحت التأسيس. ثم أعرض لمراحل تشكله في المصادر العربية الإسلامية، ثم أبين اكتمال تكوين بنيته كمنظومة فكرية.

الجذور السامية العربية والمصرية القديمة

لقد استقر تاريخيا أن العالم العربي هو مهد الحضارات، وأن العمارة كانت ومازالت شاهدا على رقي الحضارات السامية العربية التي تمثل مرحلة العروبة غير الصريحة: كالسومرية والأكادية والبابلية والأشورية في بلاد ما بين النهرين (العراق)، والمصرية القديمة (الفرعونية) في مصر، والحضارات العربية، الصريحة العروبة[10] قبل الإسلام، المتمثلة في العرب البائدة كأقوام: عاد، وثمود، والعمالقة، وجرهم، وطسم، وجديس وغيرهم، في الجزيرة الغربية، وكذلك حضارات العرب العاربة من القحطانيين في اليمن، جنوب الجزيرة العربية، كالسبئية والمعينية والحميرية، وكذلك في حضارات القبائل العربية التي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية إلى فلسطين، وسوريا، كالأموريين، والكنعانيين.

ولقد تركت هذه الحضارات إنجازات معمارية ضخمة، منها مازال مائلا إلى يومنا الحاضر، كالزقورات والمعابد في العراق. وكالأهرام، والمعابد المصرية القديمة في مصر. وكالبقايا الآثارية للحضارات السامية في سوريا وفلسطين. والبقايا الآثارية في اليمن. والمكتشفات الآثارية المنسوبة للعرب البائدة في الأحقاف (جنوب شرق الجزيرة العربية) وعمان. كما تركت هذه الحضارات نوعا من التواصل التاريخي مع الحضارة العربية الإسلامية، فبقاياها الآثارية، والمعمارية منها بصفة خاصة، مازالت تمثل حضورا وتواصلا تقانيا، وعلميا، وفكريا، في العمارة الإسلامية حتى وقتنا الحاضر.

فتقانيا نجد أن طرق البناء التقليدية، كطرق البناء بالطوب والحجر مازالت قائمة وفاعلة حتى وقتنا الحاضر. فما يعرف الآن بتقانتي بناء الطوب بالرباطين الإنجليزي والفلمنكي، ليستا إلا تقانتي بناء سامية عربية استعملتا في بناء الزقورات وغيرها من المباني في حضارات ما بين النهرين (العراق). أما تقانات البناء بالحجر، فهي مصرية قديمة استعملت في بناء المعابد المصرية القديمة، كما ما هو ماثل بالشواهد الآثارية لهذه الحضارات، واللافت للنظر أن ثمة تشابها بين أشكال المباني في العمارة المصرية القديمة، والعمارة في شرق الجزيرة العربية وجنوبها، فأشكال المباني مسلوبة إلى أعلى في عمارة كل منها، وبعض شرفاتها متشابهة، وهذا يتضح بصورة جلية في عمارة مدائن صالح وأبها في شرق الجزيرة العربية. فلا تكاد تختلف أشكال المباني في هذه المنطقة عن أشكال مباني العمارة المصرية القديمة. كما أن المعالجات البيئية لم تختلف في عمارة الحضارات السامية العربية والمصرية القديمة عنها في العمارة الإسلامية، وهذا ثابت من الشواهد الآثارية لهذه الحضارات.

أما علميا فإن هذا التواصل يتجلى بأقوى صورة في القواعد الهندسية المستعملة في إنتاج العمارة، فنظرية المثلث القائم الزاوية المنسوبة لليوناني فيتاغورس (500- 580ق.م)، ليست إلا اكتشافا بابليا[11]. والنظرية تنص على أن مربع ضلع وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين، وهو ما أثبته البابليون عمليا، ووضحوه ومثلوه في الصورة (رقم-1) والشكل (رقم- 1) الموضح للصورة، سنة (1600ق.م)، أي قبل فيتاغورس بحوالي ألف (1000) سنة.

كما أن تقانة الرسومات المعمارية تواصلت إلى العمارة الإسلامية من الحضارتين السومرية العربية والمصرية القديمة. والصورة (رقم- 2) توضح تمثالا للملك والمعماري السومري كوديا(12) (2144- 2124ق.م) وهو يتفحص مسقطا أفقيا لتصميم معبد. وربما لم يسبق كوديا في استخدام الرسومات سوى المعماري والطبيب المصري إيمحوتب[13] (2800ق.م) الذي صمم وبنا هرم زوسر، بمنطقة سقارة بالجيزة، والصورة (رقم-3) والشكل (رقم- 2) الموضح للصورة، يمثل رسم منحنى بواسطة الإحداثيات استعمل في تصميم وبناء الهرم. والأهم من كل ما سبق هو أن تقانات النسب، كالقطاع الذهبي Golden- Section، والمقياس الإنساني، وتقانات التصميم كالشبكيات، المستعملة في النحت، والتصوير، والتصميم المعماري، هي اكتشافات مصرية قديمة (فرعونية) أخذها عنهم اليونان، ونظر لها الأوروبيونفي عصر النهضة كمنجزات يونانية، وأطلقوا عليها النسب المقدسة. وتواصل هذا الزعم عند معظم المستشرقين، وأنها تواصلت إلى الحضارة العربية الإسلامية وأثرت عليها عن طريق اليونان. علما أنه ثبت يقينا أن القطاع الذهبي مكتشف مصري قديم (شكل رقم-3) نقله المؤرخ اليوناني هيرودتوس[14] عن كهنة معبد هليوبولس. كما أن هذه النسبة، أي القطاع الذهبي، لم تستعمل إطلاقا في العمارة الإسلامية، ولا في زخارفها الهندسية، لأنها نسبة كسرية، بينما نسب العمارة الإسلامية وزخارفها تحديدا نسب صحيحة.

أما النسب والمقياس الإنساني فقد عرض لها إخوان الصفا[15] في (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، كما عرض لها بتفصيل أدق، ومن المصادر المصرية القديمة مباشرة، الطبيب العربي عبد اللطيف البغدادي[16] (557-629هـ/1161-1231م). والأشكال (4أ، 4ب، 4ج) توضح الأصول الفرعونية للمقياس الإنساني. وما ينطبق على القطاع الذهبي، ينطبق على الشبكيات شكل (رقم-5)، فهي مكتشف مصري قديم، يعود إلى 2100 ق.م. ونجد تطبيقات عربية مبكرة للشبكيات، فتخطيط مكة قبل الإسلام، الذي قام به قصي[17] بن كلاب، الجد الرابع للنبي عليه الصلاة والسلام، كان شبكيا. إذ قام قصي بتقسيم مكة إلى رباع، أي إلى أقسام، أو خطط. كما استعملت الشبكيات في تخطيط البصرة والكوفة والفسطاط، كما سنرى لاحقا. فالشبكيات إذن ابتكار عربي صريح، وإن كانت له أصول وجذور سامية عربية ومصرية قديمة. فعلميا نجد أن ثمة تواصلا مباشرا بين عمارة الحضارات السامية العربية والمصرية القديمة (التي لم تحسم أصولها السامية أو العربية بعد) وبين العمارة العربية الإسلامية، ودونما وساطة يونانية كما يزعم المستشرقون.

أما فكريا فإن التواصل تمثل بأرقى صوره: بين شريعة(18) الملك البابلي حمورابي (1792- 1742 ق.م) وقوانين التنظيم التي استنها قصي بن كلاب لبناء المساكن في مكة المكرمة من ناحية، وبين أحكام البنيان الإسلامية من ناحية أخرى. وتعتبر شريعة حمورابي أقدم المنجزات الفكرية التي وصلت إلينا التي وصلت إلينا من الحضارات السامية العربية، والتي حوت خمسة قوانين معمارية:

1. إذا بناء البناء بيتا لرجل ولم يكن بناؤه متينا مما تسبب في سقوط البيت وقتل صاحبه فإن البناء يعدم.
2. إذا تسبب سقوط البيت في موت ابن المالك يعدم ابن البناء.
3. إذا تسبب في موت عبد يملكه صاحب البيت يجب على البناء أن يمنح المالك عبدا بنفس القيمة.
4. إذا تسبب سقوط البيت في تحطيم ملك ما، يجب على البناء أن يعيد إصلاح ما تحطم، وبما أن البناء لم يبن البيت بالمتانة الكافية فيجب عليه إعادة بنائه على حسابه الخاص.

5. إن انهدم أحد جدران البيت فعلى البناء أن يعيد بناء ما انهدم على نفقته الخاصة.

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذه القوانين عبارة عن قوانين جزائية، لا علاقة لها بالفكر المعماري، إذ أنها لا توضح أصول وممارسة العمل المعماري، ولا الكيفية التي يتم بها تجميع مكوناته والتعبير عنها، أو استخدامها كبيانات للتصميم المعماري، إلا أن الأمر أعمق من ذلك، فهذه القوانين تتضمن نقطتين في غاية الأهمية وهما: إن أي قانون لا يمكن أن يصاغ إلا من خلال استجابة لتجربة واسعة من الممارسة، والتي بدورها لابد أن تكون قد شكلت إطارا معرفيا، توجب معه وجود إطار مرجعي لتنظيم الممارسة من ناحية، ولإحكام تنفيد الإطار المعرفي من ناحية أخرى. أما النقطة الثانية، فهي أن العقاب الصارم الذي تنص عليه هذه القوانين إنما يهدف إلى الوصول إلى درجة عالية من الإتقان في العمل المعماري، ومرحلة الإتقان هي المرحلة قبل الأخيرة في تطور العمل المعماري، التي يعقبها القانون المنظم لآلية العمل نفسه.

من هنا يتضح لنا أن شريعة حمورابي هي أداة الفكر المعماري التي تنظم آلية إنتاجه، والتي لابد أن تكون بالضرورة، قد نتجت عن أو لازمت محتوى فكريا معماريا لم يصل إلينا حتى الآن كوحدة فكرية، كما هو الحال بالشريعة (الأداة)، بالرغم من وصول بعض مكونات هذا المحتوى: كتحديد أتعاب المعماري[19]، وتعليم الصنائع[20]، ووحدات القياس والمساحة[21] وتقانة البناء [22] والمعالجات البيئية للمساكن[23]، وذلك من خلال النقوش والكتابات الآثارية للحضارات العربية السامية.

وحقيقة الأمر؛ أن الفكر المعماري العربي السامي، بمحتواه وأداته، لا يشكل إطارا مرجعيا يمكن توظيفه بمجمله، بالرغم من حضور بعض مكونات محتواه، ومثيل لآلية أداته في الفكر المعماري العربي الإسلامي. فالأول يتمثل في استمرار تقانة البناء والمعالجات البيئية للمساكن كاستعمال الأحواش ومناوح (ملاقف) الهواء. والثاني يتمثل في استعمال أحكام البناء الإسلامية كأداة لإنتاج الأعمال المعمارية ولتنظيمها في آن واحد. وبالرغم من محدودية قوانين شريعة حمورابي إذا ما قورنت بأحكام البنيان الإسلامية، إلا أنها تمثل نوعا من الاستمرارية التاريخية، وذلك للتشابه بينهما، كما هو الحال في حكم التعويض عن الضرر في حكم الجدار المنهار. فالجزاء في الحالتين واحد كما سأبين عندما أعرض لأحكام البنيان الإسلامية لاحقا في هذه الدراسة.

كما أن شريعة حمورابي لا ترقى إلى القوانين التي استنها قصي بن كلاب لتنظيم مكة، التي تنص على: أن تكون بيوت مكة دائرية المسقط، وأسطوانية الشكل، وارتفاعها أقل من ارتفاع الكعبة تعظيما لها. وهذه القوانين، أي قوانين قصي، على الرغم من أنها بيانات تصميم توضح وتفرض، أصول ممارسة العمل المعماري وتحكم تصميمه، إلا أنها محدودة وجزئية إذا ما قورنت بمنظومة أحكام البنيان الإسلامية. إلا أنها توضح ترابطا وتواصلا فكريا بين أبناء البيئة الجغرافية الواحدة، على الرغم من تباعد الزمن، وتباين النظم العقدية والعقائدية بينها وبين شريعة حمورابي، وبين أحكام البنيان الإسلامية.

فيما سبق عرضت لمجمل أسباب التواصل التقاني، والبيئي، والعلمي، والفكري، للحضارات العربية السامية، والمصرية القديمة، والحضارات العربية الإسلامية. وفيما يلي من دراسة وتحليل سأعرض للجذور العربية للعمارة الإسلامية.

الجذور العربية

المعروف تاريخيا، وكما بينت سابقا[24]، أن العرب ينقسمون إلى ثلاث أقسام: العرب البائدة، العرب العاربة والعرب المستعربة. أما العرب البائدة فهو مجمل الأقوام العربية التي انقطع تاريخها إلا من بقي منهم في نسل عدنان. وأما العرب العاربة فهم القحطانيون من سكان اليمن قديما وحديثا. وأما العرب المستعربة فهم المنحدرون من نسل النبي إسماعيل الذي تزوج من جرهم. أي من العرب البائدة، ويعرفون أيضا بالعدنانيين نسبة إلى عدنان من أبناء إسماعيل. ومنهم ومن القحطانيين ينحدر العرب المعاصرين. وسأعرض للتواصل المعماري مع هذه الأقوام تباعا.

العرب البائدة

وهم القبائل العربية التي انقطع ذكرها، إلا ما ورد منها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، وهي: عادة، ثمود، والعمالقة، وجرهم، وطسم، وجديس، وعبيد، ووبار، وعبيل، وأميم. وحديثا تم التداول على الشابكة (Internet) عن اكتشاف بعض المباني في الربع الخالي جنوب عمان ونسبت لعاد، وسأعرض لها لاحقا. وقد انقطعت أخبار هذه الأمم بالكوارث الطبيعية[25] التي سلطها الله عز وجل عليهم، ولم يبق من نسلهم سوى أبناء معد وهم العدنانيون الذين يسكنون شبه الجزيرة العربية، وأبناء قحطان وهم القحطانيون الذين يسكنون اليمن.

واللافت أنه لا وجود لبقايا مادية للإنجازات المعمارية للعرب البائدة إلا ما نسب للعمالقة وجرهم المشاركة في بناء الكعبة التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا. وإن كان بعض المؤرخين يرون أن جرهم المنسوب إليها المشاركة في بناء الكعبة هي جرهم(26) الثانية القحطانية، وليست جرهم الأولى البائدة. كما أن ما ينسب لقوم ثمود في مدائن صالح، يعتقد أنها آثار تعود لمدائن صالح النبطية(27)، وليس الثمودية من العرب البائدة. بقي أن أشير في البقايا المادية إلى المكتشفات الآثارية الحديثة في منطقة الأحقاف، بدولة عمان، المتداولة على الشابكة، التي تنسب ما عثر عليه من عمائر إلى قوم عاد من العرب البائدة، كما في الصور (4، 5، 6،7). والواقع أن هذه المكتشفات تتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم من وصف لمدينة إرم ذات العماد، كما في قوله تعالى[28]: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ...".

وعلى الرغم من ذلك فإنه يصعب الجزم بنسبها إلى قوم عاد لأمرين: أولهما، اختلاف المؤرخين في تحديد موقع[29] مدينة إرم ذات العماد، فمنهم من يقول أنها بالأحقاف، ومنهم من يقول أنها دمشق، ومنهم من يقول أنها في منطقة رم بجنوب الأردن، ومنهم من يقول أنها الإسكندرية. وثانيهما، أن الصور تشير إلى أنها منحوتة في الصخر، ونحت البيوت في الجبال ورد في القرآن الكريم، ولكن مساكن عاد في الأحقاف، التي تعني الكثبان الرملية، أي أنه لا يوجد بها جبال. كما أن الآيات التي وردت في القرآن الكريم المتعلقة بنحت البيوت، كانت خاصة بقوم ثمود، وليس عاد. كما أن بها تماثيل منحوتة لفيلة، وكما هو معلوم بيئيا من التاريخ الطبيعي للمنطقة أن الأحقاف تخلوا من الفيلة. كما أن الشكل العام للمباني والزخارف التي تكسوها توحي بأنها هندية الطابع. وهذا يجعلنا نتساءل عن صدقية مصدر هذه الصور، وهل فعلا تم اكتشافها في منطقة الأحقاف بعمان أم في مكان آخر، لأن تداولها على الشابكة لم يأكده أي مصدر علمي موثوق.

على أن ما يعنيني في هذه المكتشفات، إن صح إكتشافها في هذه المنطقة، وسواء صح نسبتها إلى قوم عاد أم لا، فإنها تمثل جذور العملية العربية، وتعبر عن رقيها ومتانة بنائها وروعته، وجمال شكلها ودقة تفاصيلها المعمارية. وأهم من كل ذلك فإنها تعبر عن أصالة العمارة العربية لأنها اكتشفت عن أرض عربية، ولأن خصائصها الشكلية والمعمارية، تتمايز عن عمارات الحضارات التي سبقت، أو عاصرت، أو أعقبت العرب البائدة. فهي إذن من جذور العمارة العربية، خاصة وأنها تتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم من وصف مجرد لمساكن العرب البائدة، وما جاء في الشعر الجاهلي من وصف لأطام (حصون) مدينة جو أو اليمامة، موطن أقوام جديس وطسم من العرب البائدة. هذا فيما يتعلق بالعرب البائدة، الذين خلفهم العرب المستعربة والعرب العاربة من القحطانيين.

العرب العاربة (القحطانيون)

وهم العرب الذين سكنوا جنوب الجزيرة العربية في اليمن، وشكلوا دولا وحضارات، عرض لها المسعودي[30] (346هـ- 956م)، وبين أن انهيار سد مأرب بسيل العرم تسبب في شتات القحطانيين من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية والشام وفلسطين والعراق. فاندثرت عمارتهم باليمن ولم تتواصل. وأقاموا فيما بعد دولا في البلدان التي هاجروا إليها وفي اليمن، وقد عرض المسعودي وغيره من المؤرخين العرب لهذه الدولة ولبنيانها، كما دون الشعر الجاهلي الكثير من بنيانهم، كقصرى الخوزنق والسدير في الحيرة، والأخيضر في شمال العراق، ولمباني تدمر، والبتراء، ومدائن صالح، والعلا، وتيماء.

وأما عمارة اليمن(31) فقد وثقها المؤرخ والجغرافي اليمني الهمداني (280- 356هـ/ 893-966) في كتابه "الإكليل". فسجل مباني الدولة التي قامت باليمن وترجم نقوش المسند المكتوب عليها. ومن القصور التي عرض لخصائصها المعمارية: غمدان، وسلحين، وبنيون، وصرواح، وغيرها الكثير، كما سجل حصون اليمن، ومعاقلها، وقبور حكامها. والواقع أن وصف هذه المباني والمدن زودنا بمعلومات قيمة عن طبيعة العمارة ومدى رقيها باليمن. فوصف قصر غمدان بين لنا تواصلا معماريا بين عمارة اليمن القديمة والمعاصرة، فالعمارة البرجية مازالت قائمة في اليمن، واستعمال رخام الألبستر الشفاف للإضاءة في قصر غمدان مازال مستعملا في بعض فتحات الشبابيك في العمارة المعاصرة في اليمن، ناهيك عن مواد البناء واختيار مواقع التجمعات السكنية على قمم الجبال.

وبالجملة فإن الهمداني وفر لنا معلومات قيمة عن العمارة اليمينية القديمة، لكن لا يمكن اعتبارها بمفردها بداية للعمارة الإسلامية لسببين: أولهما أن العمارة اليمنية انحصرت في منطقة جغرافية محددة في جنوب جزيرة العرب على الرغم من امتدادها إلى منطقة عسير وتهامة وربما شمال الحجاز. وثانيهما أن العمارة اليمنية لم تترك لنا مفاهيم نظرية مجردة وشاملة، بل بيئية وتقانية محددة، اشتقت اشتقاقا واستنتجت استنتاجا، ولم تطرح بيانا. أي أنها وظفت تلبية لتحقيق حاجة، بمعنى أنها نتاج منهجية التجربة والخطأ، وليست نتاج الفكر والتأمل. وهذا يضعف اعتبارها، أو إمكانية تشكيلها بداية، أي مشروع فكري تحت التأسيس للعمارة العربية. لكنها تشكل جذورا له، وجزءا من بداية واعية للعمارة العربية في الجاهلية، التي سأعرض لها بعد أن أعرض لباقي جذور العمارة العربية الإسلامية فيما يلي عرض وتحليل.

العرب المستعربة

بينت أن العرب المستعربة هم من نسل النبي إسماعيل من زواجه من قبيلة جرهم. وأن جل هؤلاء العرب، فضلوا سكن البداية(32)، وقليل منهم آثر سكنى المدن: كمكة، والمدينة، والطائف. وإن غلب العرب القحطانيون على سكنى المدن. ولقد اختلط العرب المستعربة مع الجزء الأكبر من القحطانيين، الذين هاجروا من اليمن، بسبب دمار سد مأرب، وتواصلت إلينا أخبارهم من خلال الشعر الجاهلي، الذي حوي ذخيرة من المعلومات المعمارية شكلت بداية واعدة للعمارة العربية. لكن الإسلام أعاد تشكيلها كمشروع فكري تحت التأسيس كما سيتبين فيما يلي من عرض وتحليل، الذي سيعرض ابتداء للفكر المعماري العربي في الجزيرة العربية، كما ورد في الشعر الجاهلي الذي شكل بداية العمارة العربية في مرحلة، أو طور، العروبة الصريحة قبل الإسلام. لأن اللغة العربية أصبحت لغة جميع العرب في شمال ووسط وجنوب الجزيرة العربية وفي كل العالم العربي.

العمارة العربية

بينت أن الجذور التاريخية للعمارة العربية تعود إلى الحضارات السامية العربية والمصرية القديمة، أو إلى مرحلة العروبة(33) غير الصريحة. والسبب في تصنيفي لها كجذور للعمارة العربية والعربية الإسلامية، فيما بعد- مع أن ما وصل إلينا من بقايا آثارية يؤكد أنها عمارة مكتملة التكوين- يعود إلى أمرين: أولهما، أن أمر عروبتها لم يحسم بعد، على الرغم من قناعتي بتصنيفها بأنها حضارات سامية عربية، وأن كانت تمثل طور العروبة غير الصريحة، حسب تصنيف المؤرخ دروزة. وثانيهما، أن ما وصل إلينا من جسم نظري للمنتج المعماري، أو الأدب المعماري لهذه الحضارات، لا يكفي لأن نشر عنه كبداية لمشروع فكري تحت التأسيس. لأن أي بداية من هذا النوع تكون مشروطة، ومحكومة، لعوامل لم تتوفر للحضارات السامية العربية في طور العروبة غير الصريحة، التي تشكل الطور الأول في تكوين الجنس العربي. ولكنها توفرت لمرحلة العروبة الصريحة في الجاهلية بشقيها: الحضري المتمثل في اليمن، وشمال الجزيرة العربية، والعراق، وبلاد الشام. والبدوي المتمثل: في نجد، والبوادي العربية. وأهم هذه العوامل: اللغة، والأدب المعماري وتقانة البناء. وهما ما سنعول عليهما في تحديد بداية العمارة العربية في الجاهلية، مبتدءا بشقها الحضري في اليمن.

العمارة في اليمن

إن ما وصل إلينا من الأدبيات العربية المتعلقة بالعمارة العربية في اليمن وباقي الجزيرة العربية، يكاد ينحصر في الشعر الجاهلي. وما عدا ذلك فقد جاء في المصادر العربية الإسلامية، التي عولت في جمع مادتها المعمارية على ما جاء في ذلك الشعر. ولما كان هذا الشعر هو المصدر نفسه الذي حوى المفاهيم المعمارية لباقي الجزيرة العربية، فإنني سأعرض لهذه المفاهيم جملة واحدة، بمعنى أنني لن أعزل اليمن أو أسقطه من بيئته الجغرافية، وهي الجزيرة العربية.

فاليمن هو أحد الأقاليم الجغرافية الخمسة [34] التي حددها الشعراء الجاهليون للجزيرة العربية وأقرها الجغرافيون(35) العرب وهي: "السراة، الحجاز، تهامة، نجد واليمن". وسكان اليمن ينتمون عرقيا إلى الجنس العربي، فهم العرب العاربة[36]، الذين أسسوا الحضارات المتعاقبة[37]، التي كان آخرها الحضارة الحميرية[38]. وسكان اليمن يشكلون البيئة الحضرية في المجتمع العربي، على العكس من سكان باقي أقاليم الجزيرة الذين يشكلون المجتمع البدوي، مع بعض الاستثناءات في مدن الحجاز (مدائن صالح، العلا، تيماء، مكة، المدينة، الطائف)، والمراكز الحضارية في العراق[39] وسوريا وفلسطين. ولقد نتج عن هذا التباين البيئي والاجتماعي نوعان من العمران:

1- العمران الثابت الخاص بالبيئة الحضرية.
2- العمران المتنقل الخاص بالبيئة البدوية

وعلى الرغم من التباين التقاني في طبيعة العمران، فإن المحتوى الفكري لعمران البيئتين جاء متجانسا. وربما يكون مرد ذلك إلى وحدة الثقافة ووحدة المصدر الفكري وتجانس أسلوبه. أضف إلى ذلك أن التباين التقاني ليس بالضرورة ناتجا عن اختلاف عناصر الفكر المشكلة له، بل عن اختلاف طبيعة ومكونات هذه العناصر، لنحاول إذن أن نوضح ذلك.

بيت الشعر والقصر بحاجة إلى مواد لبنائها، فكلا العملين المعماريين بحاجة إلى عنصر المادة ليتم إنشاؤه بها، فالمادة هنا عنصر فكري، ولكن طبيعة المادة التي يحتاج إليها بيت الشعر تختلف عن طبيعة المادة التي يحتاج إليها القصر. فاختلاف طبيعة عناصر المادة يعتبر تقانيا، أما الأسلوب الذي تعالج به المادة، فيعتبر عنصرا فكريا. ولكن الكيفية التي تعالج بها، أو يطبق بها، أسلوب المعالجة يعتبر عنصرا تقانيا. لنصب بيت الشعر، نحتاج إلى مكان ولإنشاء القصر نحتاج إلى مكان. ولكن يتعذر علينا نصب بيت الشعر إذا كانت طبيعة تكوين المكان رملية أو صخرية، لعدم إمكانية تثبيت الأوتاد اللازمة لنصبه. وكذلك الأمر بالنسبة للقصر إذ يتعذر بناءه على مكان طبيعة تكوينه غير صالحة للتأسيس، فالمكان على إطلاقه عنصر فكري، والمكان بطبيعة تكوينه عنصر تقاني. بهذا نستطيع أن نميز بين ما هو فكر، وبين ما هو ناتج عنه أو تطبيق له. وهذا التمييز بدوره يوضح لنا آلية الفكر المعماري، التي

سنتحرك ضمنها في بحثنا عن محتوى الفكر المعماري العربي في الجزيرة العربية بأقاليمها الخمسة، وبنوعي عمرانها الثابت والمتنقل، كما دونه ووثقه الشعراء الجاهليون، مبتدئين بالتعرف على مكانة هذا الفكر في بنية الفكر العربي الشامل.

الفكر المعماري

حظي العمران بمكانة مميزة في المجتمع العربي، فكان له حضوره الأدبي، والسياسي، والاجتماعي. أما الأول فيتمثل في أغراض[40] الشعر الجاهلي، وفي بنية[41] القصيدة العربية في العصر الجاهلي. فلم تخل قصيدة جاهلية من ذكر المنازل والديار، والوقوف على الأطلال، والبكاء عليها. وما من شاعر جاهلي إلا بكى وشكا، وخاطب المنازل والديار، وتذكر أيامه وغرامياته. ولقد انعكس هذا الحضور الأدبي على الحياة السياسية، والاجتماعية، في البيئة الجاهلية. الأمر الذي حدا بأحد حكماء العرب وشعرائهم، وهو الأفوه الأودي، أن يتخذ من بنية الفكر المعماري، نموذجا يسقطه على بنية المجتمع العربي، كما في قوله[42]:

والبيت لا يبتني إلا له عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

فعناصر القيادة وخصائصها وهيكليتها عند الأفوه الأودي كعناصر العمران وخصائصه وهيكليته. فشرط القيادة مرهون بوجود أهل الرأي، ووجود العمران مرهون بوجود الساكن، أي باستعماله. فالعمران في رأي الأفوه، جاء تلبية لحاجة اجتماعية، وهذه الحاجة في رأيي هي التي أكسبته مكانته في الفكر العربي، ومنها أيضا ابتدأ الفكر المعماري، فتحددت عناصره وتشكلت بنيته، وهذا ما سأوضحه فيما يلي من دراسة وتحليل.

بنية الفكر المعماري

في تعريفي للعمارة وضحت أنها تتكون من ثلاث عناصر أساسية هي: الإنسان، والمكان، وتقانة البناء، ولما كان كل واحد من هذه العناصر يتضمن مجموعة من العناصر الجزئية التي تداخلت وترابطت ببعضها، فشكلت بينة الفكر المعماري العربي وهيكليته، فسأحاول التعرف على دور هذه العناصر فيما يلي من عرض وتحليل.

1- الإنسان

الإنسان هو العنصر الرئيس في هذه البنية، فمنه انبثقت بعض العناصر، وحوله تمحورت جميعها. فالعمران جاء تلبية لحاجته الاجتماعية، ونوعية العمران كانت استجابة لتكوينه النفسي، ولقدرته على التفاعل مع البيئة ومعطياتها، وهذا ما سأبينه على مدار هذه الدراسة. أمام هذه المركزية، سنجد أنه لابد من أن نعرض لعناصر العمارة ولبنية فكرها من خلال الإنسان، ولنبدأ بالمكان.

2- المكان

وضحت أن البيئة العربية حوت نوعين من الاجتماع: البدوي والحضري. أنتجا نوعين من العمران: المتنقل والثابت أما الأول، فعمد إلى تخير المكان بمعنى عدم الانتماء لمكان معين، والعزوف عن الصراع مع البيئة، ويتضح ذلك من قول الشاعر الأسود يعفر[43]:

أرض تخيرها ليطيب مقيلها ... كعب بن مامة وابن أم داؤد

جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد

وأما الثاني فعمد إلى تطويع المكان وتكييفه بيئيا، ويبدو ذلك في شعر منسوب لأسعد تبع[44]:

دارنا الدار ما ترام اهتضاما ... من عدو ودارا خير دار

إن قحطان إذ بناها بناها ... بين بريه وبين بحار

نطقت بالكروم والنخل والزرع ... وأصناف طيب الأشجار

وتسيح العيون فيها فما يسمع ... إلا تسلسل الأنهار

ليس يؤذيهم بها وهج الحر ... ولا القر في زمان اقتراز

طاب فيها النبات والماء والنوم ... وليل مطيب كالنهار

إن آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

هذا الاختيار الجغرافي وما أسفر عنه من معالجة بيئية تطويعية، كان ناتجا عن مجموعة من الأسباب والدوافع: الاجتماعية، والنفسية، والاقتصادية، والصحية، والعاطفية.

والدارس للشعر الجاهلي، يستطيع أن يتبين هذه الأسباب والدوافع، التي حدت بالبيئة البدوية إلى تخير أماكن إقامتها. ولقد قام المسعودي بجمع وترتيب هذه الأسباب[45]:

"ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها أشبه بأولي العز وأليق بذوي الأنفة... وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم الله سمو الأخطار ونبل الهمم والأقوار وشدة الأنفة والحمية من المعرة والهرب من العار، بدأت بالتفكير في المنازل، والتقدير للمواطن، فتأصلوا شأن المدن والأبنية، فوجدوا فيها معرة ونقصا، وقال ذوو المعرفة والتمييز منهم: إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام وتلحقها الآفات، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح... وقال ذوو الرأي منهم أن الأبنية والتحويط حصر على التصرف بالأرض،

ومقطعة عن الجولان، وتقييد للهمم، وحبس لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف... وزعموا أيضا أن الأبنية والأطلال تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء، وتسد سروحه عن المرور، فسكنوا البر الأفيح الذي لا يخافون فيه من حصر ومنازلة ضر، هذا مع ارتفاع الأقواء، وسماحة الأهواء، واعتزال الوباء، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن ونقاء القرائح في التنقل في المساكن، مع صحة الأمزجة وقوة الفطنة، وصفاء الألوان وصيانة الأجسام... (ولهذه الأسباب) أثرت العرب سكنى البوادي والحلول في البيداء... ففضلت العرب عن سائر من عداها من بوادي الأمم المتفرقة لما ذكرنا من تخيرها الأماكن وارتيادها المواطن".

وبهذا تتضح لنا الأسباب التي روعيت في اختيار الأماكن في البيئة اليدوية، وهي الأسباب نفسها التي ذكرها الهمذاني[46]، في اختيار أماكن البيئة الحضرية في اليمن، كاختيار موقع مدينة صنعاء[47]، إلا أن طبيعة الاستقرار فرضت نوعا من التفاعل أو الصراع مع البيئة بغرض تطويع واستئناس عناصرها، من أجل إبقاء المكان صالحا للعمران. ولقد عرض الهمذاني لنوعين من التفاعل والصراع مع البيئة بغرض تطويعها: أحدهما، معماري ويتمثل في توجيه المباني باتجاه الريح، كما في قصر غمدان[48] وباقي القصور اليمنية. والثاني، بيئي كزراعة المكان لتوفير أسباب المعيشة من الطعام، ولتلطيف الجو، كما يتضح في شعر أسعد تبع الذي ذكرته سابقا. وكذلك بناء السدود[49] لتوفير الماء، ولتنظيم عملية الري. بهذا تتضح جملة الأسباب، التي ذكرتها سابقا، والتي تحكمت في اختيار المكان، وتطويع طبيعته، وكيفية التعامل معه بيئيا. أما خصوصية المكان فقط اكتسبت قيمتها من الأسباب العاطفية.

اكتسبت خصوصية المكان قيمتها من واقع العلاقة الخاصة بين الإنسان (الشاعر أو الموثق) وبين المكان. ففي العمران المتنقل كانت العلاقة عاطفية، والإنسان ممثلا بالشاعر صاحب العلاقة، والمكان هو منازل وديار حبيبة الشاعر، التي شهدت أحداث هذه العلاقة، فهو مكان الذكريات، التي صاحب حضورها الأدبي في بنية القصيدة العربية (المعروف بالنسيب والتشبيب) حضورا معماريا أفرز لنا علم الآثار، الذي سأعرض له بعد قليل.

أما بيئة العمران الثابت، فإن العلاقة بين الإنسان (الشاعر أو الموثق) والمكان، وما يحويه من عمران، كانت علاقة انتساب حضاري، وانتماء قومي، أخذت شكل التوثيق المطلق، المرتبط بالمشاهدة، والمعبر عنه بالوصف والتعليق الشامل. فخلت من المعايشة، وإمعان النظر، ومن الفحص والتمحيص. فكان إفرازها تسجيلا وتأريخا للمنجزات المعمارية في اليمن، ومن هذه العلاقة تعرفنا على عناصر كتابة مادة تاريخ العمارة، التي يمكن حصرها من المحاولات الشعرية التي ذكرها الهمذاني وهي: المكان وطبيعته، المؤثرات المناخية[50]، نوع المنجز المعماري (الآثار) ووظيفته، اسم صاحبه ومكانته الاجتماعية[51]، تاريخ بناء المنجز والمدة التي استغرقها بناؤه، مواد البناء[52]، تقانة البناء، تحديد المقاسات[53] والمساحة، والخصائص الشكلية[54] للمنجز المعماري. وقد تجتمع هذه العناصر في محاولة واحدة أو في عدة محاولات، وقد تكون لشاعر واحد، أو أكثر من شاعر، إلا أنها في مجملها تأريخ للمنجزات المعمارية في اليمن، كقصر غمدان، وريدان، وسلحين، وبينون، وغيرها من القصور والمنجزات المعمارية.

من هنا نستطيع التقرير، أن خصوصية العلاقة بين الإنسان والمكان، وما يحويه من عمران في بيئة العمران الثابت، أفرزت جانبا من إطار فكري، معنى بتأريخ وتوثيق المنجزات المعمارية، له عناصره وبنيته الفكرية، وآليته التي أثبتت حضورا في بنية الفكر المعماري العربي الإسلامي المعاصر. أما الجانب الآخر من هذا الإطار وإن كان معنيا في منتهاه بتحقيق الأهداف التي حققها الجانب الأول، وهو تأريخ وتوثيق المنجزات المعمارية العربية، إلا أن طبيعة العلاقة الخاصة بين الإنسان والمكان لهذا الجانب، فرضت أسلوبا خاصا ومميزا، إذ اتخذت من علم الآثار، وتقانة الاستقصاء الآثاري، منهجا لها، وهذا ما سأحاول تبينه فيما يلي من دراسة وتحليل.

علم الآثار

أشرت سابقا إلى عاطفية العلاقة بين الإنسان والمكان في هذا الجانب، الأمر الذي جعل من التوثيق فيها حقيقة معاشه، فكان أسلوبها[55] أكثر انفعالا وأعمق تحليلا، إذ عبر فيها الشعراء عن انفعالاتهم من جراء معايشتهم للعمران ثم لآثار العمران، أي من خلال معاصرتهم لتأريخ العمران ثم لتذكرهم له. ولما كان التاريخ أحداثا تعاش، فإن وجود مسرح الأحداث، وهو العمران، شرط لوجود التاريخ، وزواله انتهاء للتاريخ من ناحية، وبداية للذكرى من ناحية أخرى. والدارس للشعر الجاهلي ببيئة العمران المتنقل، يستطيع أن يخلص إلى أن هذا الجانب من الإطار الفكري إنما هو وليد الذكرى، وإفراز لها وليس للتاريخ، كما هو الحال في بيئة العمران الثابت، وقد أكد دور الذكرى الشاعر امرؤ القيس[56]:

قفـــا نبـــك مـــن ذكـــرى حبيـــب ومنـــزل بســـقط اللـــوى بـــين الـــدخول فحومـــل

فالذكرى إذن هي العلاقة بين الإنسان والمكان، هي العلاقة بين الإنسان الشاعر (الموثق أو الآثاري)، وبين الإنسان الذي كان يقطن المكان (المحبوبة وعشيرتها). الذكرى إذن علاقة بين إنسان موجود، وإنسان كان له وجود، وأصبح له آثار وبقايا وجود. فهي عبارة عن محاولة، تهدف لإحياء هذا الوجود، من خلال التعرف على آثاره وبقاياه. ولقد أسفر تكرار هذه المحاولة، عند شعراء بيئة العمران المتنقل، عن تشكيل فكر المدرسة الآثارية، التي عرضت لها بالتفصيل في بحث[57] سابق، حيث حددت خمسة عناصر لهذا الفكر وهي: الإنسان، والآثار، والمكان، والبيئة، والخبر: وبينت أن العنصر الخامس كان نتيجة لتداخل العناصر الأربعة الأولى، كما بينت أن هذه العناصر مجتمعة قد تداخلت في أسلوب المدرسة الآثارية حتى أصبحت مادة له، وشاركت في تشكيل عناصره وهي: تحديد هوية أصحاب الآثار، تحديد هوية الآثار واستعمالاته، المكان، مواد البناء وتقانته، المؤثرات البيئة والاستقصاء الآثاري. كما وضحت أن الاستقصاء الآثاري يشكل العمود الفقري لفكر المدرسة الآثارية، فبواسطته يمكن التعرف على باقي عناصر الأسلوب، كالتحقق من أصحاب الآثار، وهويته، ومكانه. كما يمكن التحقق من مواد البناء وتقانته، وإبراز دور المؤثرات البيئية على العمران. كما أفرزت لنا عملية الاستقصاء، أسلوب التفسير الآثاري، الذي اتخذ منهجين: التفسير بواسطة الأسطورة، والتفسير العلمي. وقد وضحت في البحث المشار إليه، الأسباب والدوافع العملية وراء التفسير بواسطة الأسطورة كما وضحت تقانة وآلية التفسير العلمي، والكيفية التي وظفت فيها عناصر أسلوب المدرسة الآثارية، بما فيها الدين واللغة وتقانة البناء، ودور كل منها في عملية التفسير.

كما بينت أن التفسير العلمي للآثار تفسير شامل، اعتمد على الملاحظة الدقيقة، وتبني تقانة الوصف التحليلي، بغرض خدمة هدف محدد، وهو التعرف على المنازل والديار، وذلك لإشباع رغبة عاطفية، وخلصت إلى أن المحاولات الآثارية في الشعر الجاهلي قد أرست قواعد وأسس فكر المدرسة الآثارية العربية، التي لعبت دورا فاعلا في تشكيل مجموعة من المفاهيم المعمارية: كتوضيح أماكن التجمعات البشرية[58] وأسمائها في الجزيرة العربية: "كالمنازل"[59]، "الديار"، "الدارات"[60]، "الدمن"، "البرق"، "المحال"، "المعاهد"، "المغاني"، "الربع"، "العرصات" "والمدن". وكذلك توضيح خصائصها الجغرافية[61] والمناخية[62]، والمعايير البيئية[63] والاجتماعية التي حكمت اختيارها للسكن. وتأتي قيمة هذه المفاهيم والمعايير البيئية والاجتماعية من تواصل حضورها ومن مكانتها المرجعية في الحقل المعرفي المعماري، إذ مازالت هذه المعايير هي التي تحكم اختيار أماكن التجمعات البشرية الجديدة.

وبالمدرسة الآثارية يكتمل الجانب الآخر من الإطار الفكري المعماري في المرحلة العربية، وفي تقييمي لهذا الإطار أستطيع التقرير، أنه أثبت حضورا في الحقل المعرفي المعماري، على مستوى الدراسات والممارسات المعمارية. أما الممارسات فتتضح لنا من المفاهيم الإرشادية التي أشرت لحضورها على مدار هذه الدراسة، وأما الدراسات فإن هذا الإطار بجانبيه: التأريخي، والتوثيقي الآثاري، يعتبر الأداة التي يتم بواسطتها دراسة الإنجازات المعمارية للحضارات المنقرضة، وسنرى كيف وظف هذا الإطار في الفكر المعماري العربي الإسلامي، الذي سأعرض له بعد أن أعرض للعامل الثالث في بنية الفكر المعماري.

3- تقانة البناء

وهي الطرق التي يتم بها تحقيق الوجود المادي للعمارة، وتختلف في العمران الحضري عنها في العمران البدوي، كما تختلف من بيئة جغرافية إلى بيئة أخرى. وفي كل الأحوال فهي تعكس قدرات الإنسان على تطويع البيئة وتوظيف موادها في البناء. ويتم ذلك إما بمنهجية التجربة والخطأ، أو بمنهجية التفكر والتأمل.

فالأولى تعتمد على تكرار المحاولات لبناء المباني الذي يتعلم من خلالها الإنسان (البناء أو المعمار) من أخطاءه، فيتفادها في كل مرة حتى يصل إلى طريقة البناء الصحيحة، التي يواصل تكرارها وتحسين تقانتها إلى أن تترسخ كتقانة مثلى في عملية البناء. أما الثانية فيلجأ فيها البناء أو المعمار إلى إمعان النظر والتفكير في عملية تطويع مواد البيئة حتى يحقق إنشاء المباني، فيتفادى أخطاء البناء. وهاتان المنهجيتان، خاصة الثانية، خلقتا تقانات بناء متعددة تم تأطيرها نظريا فتشكلت ركيزة في الفكر المعماري. وسنرى حضور هذه العوامل الثلاث: الإنسان، والمكان، وتقانة البناء– وبصفة خاصة متطلبات الإنسان الاجتماعية والنفسية– في الفكر المعماري العربي الإسلامي.

الفكر المعماري العربي الإسلامي

اتخذ الفكر المعماري العربي في المرحلة الإسلامية مسارا جديدا، إذ انتقل من مرحلة التسجيل والتوثيق، إلى مرحلة التنظير، ومن مرحلة العاطفة، إلى مرحلة العقل، فتنوعت مصادره وتباينت مواده، فاتسعت هيكليته، فأصبح مبحثا، أو علما قائما بذاته، له استقلاليته، وخصائصه، وفروعه، وتداخلاته. ولكن ضمن النظامين: العقدي، والمعرفي، للحضارة العربية الإسلامية. وسأحدد هذه المصادر، ثم أحاول أن أستنفر ما حوته من مفاهيم معمارية، لكي نتعرف على هيكليته، وعلى الكيفية التي أعاد بها تشكيل بداية العمارة في الجاهلية، من مشروع فكري تحت التأسيس، إلى مشروع فكري قيد التأسيس، ومن بداية واعية، إلى بداية أكثر وعيا، محكومة بنظامين عقدي ومعرفي عنيا كل العناية بمتطلبات الإنسان اللاجتماعية والنفسية. كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل، مبتدءا بمصادر الفكر المعماري العربي الإسلامي، ولكن بعد أن أعرض لمفهوم البداية. البداية.

البداية هي لحظة في الزمن، وهي مشروع فكري تحت التأسيس[64]، ففي شقها الأول معنى تاريخيا، وفي شقها الثاني معنى بنائيا. وكلا المعنيين متلازمين في النشأة، ولكن المعنى التاريخي ينحسر بعد تسجيل حضوره الزمني، ليترك للمعنى البنائي حرية المسار. والبداية ليست دائما واضحة، وبينة، وجلية، وذات مسار خطي تقدمي، ولكنها أساسا نشاطا يتضمن إعادة أو تكرار، أو مباينة ومخالفة. فإعادة البداية، أو تكرارها، يصاحبه نشاط فكري، مكمل أو مباين ومخالف، للنشاط الفكري للبداية الأولى، ومفهوم البداية مرتبط باستمرار بأفكار قديمة أو مسبقة، فهي، أي البداية، الخطوة الأولى التي تتم عن قصد وعن نية، لإنتاج المعنى، أو الفكر، أو العمل. فالبداية عمل خلاق، لأنها تأخذ مسارا مغايرا ومخالفا لما هو قائم وفاعل، من أفكار سابقة ونشاطات قديمة، ولأنها تعمل على إنتاج، وخلق، وإبداع، أفكار ومبادئ جديدة. فهي، أي البداية، عمل فكري مغاير ومخالف للمنظومات الفكرية المأسسة، أي للمنظومات الفكرية مكتملة التكوين، أو تصحيح وتعديل مسار لبداية أخرى.

والبداية، كما أسلفت، مشروع فكري تحت التأسيس، بينما الأفكار القديمة، والنشاطات المسبقة، عبارة عن منظومات فكرية مكتملة التكوين أو تتلمس اكتمال تكوينها، أي إنها لم تعد بدايات. فالبداية تفقد حضورها، في اللحظة التي يتشكل فيها عناصر فكر مشروعها المنشود، وقبل أن يكتمل في منظومة فكرية، مكتملة التكوين. فالبداية إذن هي نواة وأساس المنظومات الفكرية، وهي التي تحدد الخطوة الأولى في مسار تكوين هذه المنظومات، التي تمر في ثلاثة مراحل: بداية، تشكل، تكوين.

فإذا أسقطنا هذا المفهوم على العمارة العربية، لوجدنا أن الأعمال والنشاطات القديمة تتمثل في الحضارات السامية العربية، أي في مرحلة العروبة غير الصريحة، بينما نجد البداية الأولى قد تمت في العصر الجاهلي، أي في مرحلة العروبة الصريحة، التي لم يكن نظام عقدي يحدد مسارها. فجاء الإسلام، بنظاميه: العقدي والمعرفي، ليشكل بداية مفارقة لبداية العصر الجاهلي. فحدد مسارها وترك حرية تشكيل فكرها للفقهاء والمفكرين والمعماريين المسلمين. كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل في مصادر الفكر المعماري العربي الإسلامي.

مصادر الفكر المعماري العربي الإسلامي

يوجد ستة مصادر للفكر المعماري العربي الإسلامي وهي:

(1) المصادر الدينية.
(2) المصادر الأدبية.
(3) المصادر الجغرافية وأدب الرحلات.
(4) المصادر التاريخية.
(5) المصادر العلمية.
(6) المصادر المعمارية.

ولقد طرح كل مصدر من المصادر الخمسة الأولى، مجموعة من النقاط والمسائل التأسيسية، شكلت بدورها الفكر المعماري العربي الإسلامي. الذي تم جمعه وتصنيفه وتبويبه جزئيا في المصدر السادس. ولقد لعبت المصادر الخمسة الأولى دورا مهما في تحديد بداية الفكر المعماري العربي الإسلامي وتشكل ظاهرته. فالمصدر الأول، أي المصدر الديني، حدد بداية منظومة الفكر العربي الإسلامي، ورسم مسار تشكله. بينما شكلت المصادر الأربعة الباقية عناصر بنيته، وأوصلته إلى مرحلة تكوين الظاهرة، التي اكتمل بنائها في المصدر السادس. وسأعرض فيما يلي من دراسة وتحليل لهذه المصادر.

1- المصدر الديني

يمثل المصدر الديني بما حواه القرآن الكريم والحديث الشريف من مفاهيم للفكر المعماري، ترك أمر تفصيلها للفقهاء والمفكرين المسلمين، المصدر الرئيس الذي حدد بداية الفكر المعماري الإسلامي، ووضع أسسها وحدد مسارها. فتدرج القرآن الكريم في عرضه للعمارة: فبدأ بالعمران الشامل، وهو مرحلة إعمار الأرض، كما في قوله تعالى(65): (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً). ثم عرض للعمران الاجتماعي الخاص، وهو مرحلة الاستقرار في الأرض، كما في قوله تعالى(66)، (...وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ). ثم عرض لإعادة ترتيب العمران في الأرض، وتكوين الحضارات بعد الطوفان، كما في قوله تعالى(67): (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ). ثم عرض للعمارة كظاهرة حضارية، اقتضتها ضرورة الاجتماع، فعرض لعناصر فكرها ضمن إطارين:

1- إطار خاص بدراسة الظاهرة.
2- إطار خاص بممارستها.

1-1- دراسة الظاهرة

دراسة الظاهرة جاءت إقرارا واستمرارا للإطار الذي أفرزه الشعر الجاهلي. ولكن القرآن الكريم انتقل بهذا الإطار، من مرحلة الانتساب الحضاري والذكرى، إلى مرحلة التوثيق العلمي، فأعطاه بذلك بعدا حضاريا، تمثل في توظيف هذا الإطار في دراسة المنجزات الحضارية المنقرضة كحضارات عاد، وثمود، وسبأ وغيرها، كما في قوله تعالى(68): (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ). وكذلك في قوله تعالى(69): (...وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ). ولقد توسع الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في توظيف هذا الإطار، بدراساتهم المعمارية والآثارية، كما سأعرض لاحقا عند الكلام عن المصادر الجغرافية والتاريخية.

1-2- ممارسة الظاهرة

لقد وضحت المصادر الدينية هذا الإطار ضمن خمسة طروحات فكرية: بيئية، واجتماعية، وتقانية، وجمالية، ووظيفية، وسأعرض لها تباعا.

1-2-1- الطرح البيئي

يتضح هذا الطرح في تسخير عناصر ومكونات البيئة لخدمة الإنسان، لاستئناسها وتطويعها في بيئته المبنية، على اختلاف أنماطها، أي سواء كانت: مسكنا، أو مسجدا، أو مدرسة، أو خلاف ذلك. وتأتي قيمة هذه المنظومة من كون القرآن الكريم سخر عناصر البيئة وسخر نقيضها في البيئة نفسها كوسيلة لتطويعها. فسخر الشمس وسخر الظل نقيضا لها، وسخر الضوء وسخر الظلمة نقيضا له، وسخر الليل ونقيضه النهار، وهكذا في باقي عناصر البيئة الأمر الذي حقق نوعا من التوازن أو التكامل البيئي، أمكن توظيفه داخل البيئة المبينة كما في قوله تعالى(70): (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

كما عبر القرآن بصورة أكثر وضوحا وصراحة عن توظيف هذا التوازن أو التكامل البيئي في خدمة الإنسان وبيئته المبنية، كما في قوله تعالى(71): وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ). هذه المنظومة البيئية تطورت من مرحلة الطرح المعرفي في القرآن الكريم، إلى مرحلة التقنين في الفقه الإسلامي، ثم إلى مرحلة التنظير في الفكر المعماري، وهذا ما سأبينه على مدار هذه الدراسة.

1-2-2- الطرح الاجتماعي

هذا الطرح حددته طبيعة العلاقات داخل الأسرة، وطبيعة العلاقات بين الأسر، فتحددت بذلك مبادئ النظام الاجتماعي للمجتمع المسلم. وسورة النساء خير مثال على تنظيم العلاقات الأسرية. التي تناولها الفقهاء والمفكرون المسلمون بالشرح والتحليل والتشريع والتطبيق. وترجمها المعماريون والبناؤون إلى عناصر وفراغات وأشكال معمارية، حققوا من خلالها مفهوم الخصوصية في المساكن والوقاية لأفراد المجتمع، وهذا ما سأبينه عندما أعرض للمصادر المعمارية.

1-2-3 الطرح التقاني

تعرفنا من خلال هذا الطرح على مفهوم المتانة، وهو المفهوم المعماري الأقوى حضورا في الفكر المعماري الإسلامي . فمتانة البنيان وتماسكه، هو النموذج الذي أسقط عليه القرآن الكريم قوة الإيمان، وتماسك بنية المجتمع، كما في قوله تعالى(72): (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). والمتانة كما وضحها القرآن الكريم، هي مصدر الأمان والطمأنينة، التي بها يتحقق الاستعمال للمباني على اختلاف وظيفتها، كما يتضح في قوله تعالى(73): (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ). فالمتانة إذن شرط من شروط الإشغال والاستعمال للمباني، وهذا سيتضح أيضا في المصادر الأدبية.

1 -2-4- الطرح الجمالي

إن مصدر الجمال في القرآن الكريم هو التصوير[74]، والتفكر والتأمل، بخلق الله عز وجل وأن التصوير في القرآن الكريم هو الوسيلة التي عنيت بإبراز المعاني الجمالية في خلق الله. فكانت اللذة الجمالية مصحوبة باستيعاب المضمون، أي طبيعة الأشياء الجميلة، وما يخلق الوعي والشعور عند الناظر. لأن الحسن، أي الجمال، إنما يكون من المعاني الجزئية التي يحويها المنظر، وتمامه وكماله، يتم بالتناسب والإتلاف، الذي يحدث بين المعاني الجزئية. والجمال في القرآن الكريم هو انفعال مع إنتاج وتصوير المبدع، أي الخالق، ناتج عن تفكر وتأمل بنفسية المتلقي أو الناظر.

والتصوير يهدف إلى إبراز المعنى: فهو تربوي في هدفه، نفسي في معالجته، بيئي في عرضه، علمي في أسلوبه، ومنطقي في محتواه، يجمع بين خيال الذهن وواقعية الفكر ويتم التصوير في القرآن الكريم، بالتعبير بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، عن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور. وبالتعبير بالصورة الشاخصة، والحركة المتجددة، مما يرفع درجة التفاعل معها نفسيا وذهنيا. كما يتم التصوير بالتفكر والتأمل. وفي جميع هذه الحالات اعتمد التصوير في القرآن الكريم على استخدام العناصر التالية(75): اللون والحركة، والإيقاع، والتجسيم والتمثيل الحسي، والشفافية، والترتيب والنظام. وغالبا ما تكون هذه العناصر مجتمعة من خلال الوصف والحوار. ومن الأمثلة على التفكر والتأمل في القرآن الكريم ما ورد في سورة العنكبوت الآية: 41: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)". وأيضا في قوله تعالى سورة الملك، الآيتان: 3-4: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ). ومن الأمثلة على الحركة والترتيب ما ورد في سورة الفرقان، الآيتان: 45- 46: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا).

وأما التعبير باللون فقد ورد في سورة البقرة، الآية: 69: (... إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ). وأما التعبير بالشفافية فكما في قوله تعالى في سورة النور، الآية: 35: (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). وأما التعبير عن الترتيب والنظام والحركة، فكما في قوله تعالى في سورة يس، الآيات: 38- 40: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

هذه المعاني الجزئية التي وظفها القرآن الكريم في الطرح الجمالي، هي التي أعادت تشكيل مفهوم الجمال في الأدب المعماري، كما سنرى في نظريات الإدراك عند الحسن بن الهيثم عند عرض وتحليل دور المصادر العلمية في تشكيل الفكر المعماري العربي الإسلامي.

1-2-5 الطرح الوظيفي

وهو الطرح الأخير في عملية إعادة تشكيل بداية الفكر المعماري. وقد أفرز هذا الطرح الحديث الشريف، كما في قوله صلى الله عليه وسلم[76]: "كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا بناء كفافا". وهذا المفهوم طبقه النبي صلى الله عليه وسلم، في مسجده بالمدينة، وفي بيوت زوجاته المحيطة بالمسجد. والوظيفية في الفكر المعماري العربي الإسلامي، وإن كانت وليدة أسباب: دينية، واجتماعية، واقتصادية، كما عبر عنها الحديث، إلا أنها لا تعني الالتزام بالتجريد الشكلي، والاكتفاء به، وإلغاء العناصر الجمالية فيه، وإنما المراد بها ألا يكون التكلف[77] في البناء –وبخاصة بناء المساجد– سنة متبعة ترهق المسلمين اقتصاديا، وربما يتعذر عليهم بناؤها. فالوظيفية إذن جاءت تيسيرا وتسهيلا لحاجة اجتماعية هي عملية البناء، وليست مذهبا جماليا بحكم الإنتاج المعماري.

بقي أن أشير في المصدر الديني إلا أن الإسلام دين حضري، فلقد نهى القرآن الكريم عن سلوك أهل البادية، ووصف الأعراب (سكان البادية) بالكفر والنفاق كما في قوله تعالى، في سورة التوبة، الآية: 97: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن سكن البداية، كما في قوله[78]: "من بدا أكثر من شهرين فهي أعرابية"، وفي قوله أيضا[79]: "من بدا جفا". كما يجدر أن أعرض هنا لنظريات عمر بن الخطاب في التخطيط العمراني قبل أن أنهي البحث في المصدر الديني. فالمعروف أن أول مدن الإسلام أنشأها عمر بن الخطاب. وهي مدينتي البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر، ولقد تم إنشاؤها بناء على رؤى وأفكار عمر بن الخطاب في رسالة وجهها إلى واليه على البصرة[80]:

"إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان،... فليرتادا منزلا بريا بحريا، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر... ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة... وألا يرفعوا بنيانا فوق القدر... [أي] ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد... [وأن تكون] المناهج [الطرق الرئيسية] 40 ذراعا [22.6م]، وما يليها 30 ذراعا [16.3م] وما بين ذلك 20 ذراعا [11.3م] والأزقة 7 أذرع [3.95م]، ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع 60 ذراعا [33.9م]... فأول شيء خط بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد... ثم قام رجل في وسطه، رام شديد النزع، فرمى عن يمينه فأمر من يشاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين. فترك المسجد في مربعة غلوة...[اعتبرت الذراع مساويا 56.5سم]".

وتتضح رؤى عمر بن الخطاب في المعايير الإستراتيجية التي تحكم اختيار مواقع المدن، التي شملت المعايير البيئية، والاجتماعية، والجغرافية، والاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، والإدارية، وهي نفس المعايير التي تبناها ابن خلدون(81) لاختيار مواقع المدن فيما بعد.

أما التخطيط المقترح، فقد حوى مجموعة من المعايير الفنية: كتحديد استعمالات الأراضي، لأغراض سكنية، ودينية، وإدارية، وترفيهية، كما عني التخطيط المقترح بتوزيع النسيج العمراني على أساس شبكي من خلال تحديد أطوال القطائع (القسائم)، وتحديد عروض الشوارع في شبكة الطرق تبعا لتراتيبها: رئيسة، وفرعية، وأزقة، وتحديد ارتفاعات المباني. ويتضح مما حوته هذه الرؤى، أنها تشكل أول نظريات تخطيط عمراني، بل يمكن القول أنها أرست نواة علم التخطيط العمراني المعاصر.

مما سبق يتضح؛ كيف أن المصدر الديني بطروحاته الخمسة، عدل، وحدد، ورسم، بوعي وقصد، مسار بداية الفكر المعماري في الجاهلية، إلى بداية لمشروع فكري معماري قيد التأسيس في الإسلام. وسنرى فيما يلي من عرض وتحليل كيف أن باقي المصادر وظفت لتشكيل فكر هذا المشروع وأوصلته إلى مرحلة تكوين الظاهرة المعمارية، أو منظومة الفكر المعماري العربي الإسلامي، مبتدئا بالمصادر الأدبية.

2- المصادر الأدبية

كان لإسهام المصادر الأدبية دور كبير في تطوير الفكر المعماري. واكتسب هذا الإسهام قيمته من كونه إسهاما نقديا معنيا بتصحيح مفاهيم متداولة، وإضافة مفاهيم جديدة، ويعمل على إثراء الفكر وتجديده، فالجاحظ أثري فكر المدرسة الآثارية بتوضيحه لدور الكتابة[82] المزدوج في عملية تخليد الإنجازات الحضارية، وهما التوثيق الأثاري بالكتابة على حيطان المنجزات المعمارية، والتوثيق التاريخي في الكتب. وأن الأخير أبقى وأحفظ للمآثر الحضاري من الأول، لأن العادة جرت أن يطمس[83] الملوك والأمراء الإنجازات المعمارية لمن سبقوهم.

ثم انتقل الجاحظ إلى عملية الاستقصاء الآثاري[84]، فنفى من خلاله النظرية السائدة بشأن طول وعرض وضخامة أجسام الأمم السابقة (باستثناء قوم عاد)، مستدلا على ذلك من مخلفاتهم الآثارية كضيق أبواب[85] قصورهم ومدافنهم وقصر سمك عتب أدراجها[86]، ومن مواضيع قناديل كنائسهم ومجالسهم وبيوت عبادتهم وملاعبهم، من قمم رؤوسهم"[87].

ومحاولات الجاحظ لم تقف عند تصحيح بعض مفاهيم المدرسة الآثارية وإثرائها، بل تعدت ذلك لتوضح معايير وبيانات تصميم[88] البيوت وعناصرها، من خلال وصفه لبيوت البصرة، كتخصيص مكان للبالوعة (المرحاض)، وآخر للغسيل ومكانه فناء الدار، ووضع المطبخ على السطح لتفادي الروائح داخل البيت...إلخ.

ولقد شارك ابن قتيبة في وضع هذه المعايير والبيانات، فأشار إلى ضرورة توجيه قسم النوم إلى الشرق(89) وضرورة تخصيص المناطق الشرقية للعمران والمناطق الغربية للبساتين[90]. وهذه المعايير والبيانات القديمة في طرحها والمعاصرة في مضمونها واستعمالاتها، لم تكن الإسهام الوحيد للمصادر الأدبية في الفكر المعماري، فقد تضمنت هذه المصادر مضامين فكرية ذات جذور وأبعاد تأسيسية في الفكر المعماري.

وأخص منها المضامين الفكرية الوظيفية التي عرض لها ابن قتيبة، تشبيهه بناء الدار بتفصيل "القميص"[91] الذي تخضع توسعته وتضييقه لمقاس من يلبس القميص. وكذلك الأمر بالنسبة لتصميم وبناء الدار، فيجب أن يحقق حاجات المستعملين. هذا على مستوى الاستعمال، أما على مستوى الجمال، فقد وصف ابن قتيبة مادة البناء الأصلية بالذهب [92]، ووصف مواد التكسية لمادة البناء الأصلية بالفضة وخلص إلى أن كلا من مواد البناء الأصلية ومواد التكسية تحققان الجمال، لكن جمال المادة الحقيقي يكون أظهر تعبيرا. فالوظيفة عند ابن قتيبة ليست التزاما بالتجريد الشكلي واكتفاءا به فقط، وإن كان التجريد بذاته يحقق الجمال، بل هي تيسير، وتسهيل لتلبية الحاجات الاجتماعية كما أسلفت.

وهذا المضمون أكده أيضا ابن رشيق، ولكن بصورة أكثر وضوحا فيقول[93]:

"والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية، قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية، فأما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغنى عنها".

إن ما يعنيني هنا هو أن البيت لا يبنى إلا للاستعمال، أي لأداء وظيفة معينة هي السكن، وتأتي قيمة البيت من مدى ملائمته للسكن، والملائمة تتأتى من تحقيق التصميم المعماري لحاجات المستعملين، ومن متانة البناء، ليتسنى للمستعملين مباشرة أمورهم الحياتية بأمان. وأما العناصر الجمالية فهي زيادة مستحبة، لا يشترط الاستغناء عنها في عمليتي التصميم والبناء، وهذا ما أشرت إليه سابقا.

وهذا يعني أيضا أن الطرح الوظيفي في الفكر المعماري الإسلامي، جاء متجانسا بالرغم من تنوع مصادره، فما جاء في المصادر الأدبية ليس إلا تواصلا واستمرارا لما جاء في المصادر الدينية، وهذا التواصل والاستمرار ما هو إلا دليل على وحدة الفكر، التي سنرى لها جوانب أخرى في المصادر الجغرافية وأدب الرحلات.

3- المصادر الجغرافية

لعبت المصادر الجغرافية، بما فيها أدب الرحلات، دورا مميزا، في الفكر المعماري، وأخص بالذات الجانب التخطيطي منه، فقد عرضت هذه المصادر للخصائص الجغرافية[94] والمناخية للعالم العربي الإسلامي، وبينت مصادره الاقتصادية وتقسيماته السياسية والإدارية، فتعرفنا على أقاليمه السنة[95] وهي: جزيرة العرب، العراق، أقور (الموصل وديار بكر)، الشام، مصر، المغرب. كما عرض المقدسي للمخطط الهيكلي لكل إقليم مرسوما وموضحا بالألوان[96]:

"ثم فصلنا كور كل إقليم ونصبنا أمصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها وأجنادها بعدما مثلناها ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وأنهارها المعروفة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام".

فاستعمال المخططات وإخراجها بالألوان يعتبر نقلة نوعية في تاريخ الفكر المعماري، فالمخطط ما هو إلا ترجمة لأفكار محددة، والألوان إظهار لها. ويبدو أن أهم ما أسهمت به المصادر الجغرافية هو الوصف التفصيلي للمدن، وما حوته من إنجازات معمارية، الذي تعرفنا من خلاله على المخطط الهيكلي(97) لبعض المدن العربية، كما تعرفنا على: استعمالات الأراضي، والنسيج المعماري، وشبكة الطرق، والأنشطة المختلفة التي تحويها المدن، وعناصر التصميم الحضري، والنمط المعماري، وخصائصه الشكلية، والتقانية.

والواقع أن الوصف لا يقتصر على إعطاء صورة واضحة عن واقع حال المدينة عند وصفها، بل إنه يعطي صورة عن الأفكار المستعملة في تخطيطها، فالوصف بالضرورة إما أن يؤكد كل أو بعض الأفكار المتداولة والمعروفة. كنظريات عمر بن الخطاب في تخطيط المدن التي أشرت إليها سابقا، أو يتضمن أفكارا، جديدة لم تكن معروفة سابقا، وبهذا يكون الوصف سجلا للأفكار، فهو إذن جزء من الإطار الفكري الذي يحكم العمل المعماري، وهذا ما سأبينه في المصادر التاريخية.

4- المصادر التاريخية

إن ما حوته المصادر التاريخية من مفاهيم معمارية يكاد ينحصر ضمن الجانب الخاص بدراسة العمارة إلا بممارستها، إذا عرضت هذه المصادر للمنجزات المعمارية للحضارات المنقرضة، ولمنجزات الحضارة العربية الإسلامية، وقد عولجت هذه المواضيع في كتب معمارية متخصصة، سنتعرف من خلالها على إسهام المصادر التاريخية في الفكر المعماري، ولكن بعد أن نعرض للمصادر العلمية.

5- المصادر العلمية

احتل الإسهام العلمي مكانة مميزة في الفكري المعماري، فغطى الجوانب الصحية والهندسية، أما الإسهام الصحي فقد تمثل في رأي الطب باختيار مواقع المساكن وتهيئتها وتوجيهها، فوضح لنا ابن سينا أنواع المساكن[98] تبعا لمكانها الجغرافي، وعرض للعوامل البيئية التي تؤثر عليها، وخلص إلى أن أماكن المساكن يجب أن تكون في ناحية المشرق[99] وأن يتم توجيه فتحاتها من أبواب وشبابيك باتجاه شرق[100] الشمال، لتمكين الرياح المشرقية- وهي الأكثر نقاءا وصفاءا- من مداخلة الأبنية، وكذلك تمكين الشمس من الوصول إلى كل موضع فيها. وقد جاء رأي الطب مؤكدا لرأي ابن قتيبة الذي أشرت إليه في المصادر الأدبية، وهذا أيضا يدلل على وحدة الفكر المعماري. وأما الإسهام الهندسي، فيتمثل في معرفة خواص الأشكال الهندسية وطرق القياس ومعرفة المساحة، وقد عرض إخوان الصفا لهذا العلم، وبينوا حاجة الصناعات[101] إليه. فتكوين الأجسام المصنوعة عندهم يتم: بالتقدير أولا، وقبل العمل، وذلك لمعرفة موضع الجزء من الكل، وبالتأليف ثانيا، وذلك لمعرفة تجاور الأجزاء وتباعدها، وبالترتيب ثالثا، وذلك لمعرفة التوقيت الذي يتم فيه تركيب الأجزاء. وبهذه العملية التي أساسها التفكر والتأمل والتآلف والتناسب[102]، يتم تكوين الأشكال، ومنها الشكل المعماري.

أما ابن الهيثم[103] فقد عرض لتكوين الأشكال (الصور) من خلال علم البصريات، فأسفرت محاولته عن وضع قواعد وأسس رسم المنظور الهندسي، فذكر أن الصور تتكون وتدرك من خلال المعاني الجزئية المكونة لها، والتي تنقسم بالجملة إلى اثنين وعشرين قسما وهي[104]:

"الضوء، اللون، البعد، الوضع، التجسيم، الشكل، العظم، التفرق، الاتصال، العدد، الحركة، السكون، الخشونة، الملاسة، الشفيف، الكثافة، الظل، الظلمة، الحسن، القبح، التشابه، الاختلاف".

ويندرج تحت هذه المعاني معان أقل منها جزئية تدخل في تكوين الصور. ولقد أسهمت هذه المعاني في تشكيل العمل المعماري، فالمنظور المعماري يتم إدراكه من خلال إدراك المعاني الجزئية[150] المشكلة لسطوحه، ومن خلال وضعه، وتجسمه، وشكله. أما سطوحه فيتم إدراكها من خلال خمسة[106] معان، وهي: الضوء الكائن فيها، لونها، بعدها، جهتها، وكمية بعدها.

وهذه المعاني تدرك جملة واحدة لأنها تدرك بالمعرفة، فأما وضعه فيدرك من خلال ترتيب أجزائه ومدى تآلفها وانسجامها، أو تباينها وتفرقها. كما يدرك تقدمها وتأخرها من خلال إدراك كمية أبعاد هذه الأجزاء عن البصر. وأما تجسم المنظور فيدرك من خلال امتداده في الأبعاد الثلاثة: الطول، العرض، والارتفاع، ومن انعطافات سطوحه وتداخل أجزائه. وأما الشكل فهو إدراك لهيئة سطوح المنظور وما تكون عليه من تحديب، أو تقعير، أو شخوص، أو غؤور.

والواقع أن هذه المعاني التي أدركنا من خلالها المنظور هي المعاني نفسها التي نستطيع أن نستعملها لرسم المنظور وتكوين الصور. أما رسم المنظور فقد استطاع من خلاله المعماريون ترجمة خيالهم إلى واقع عملي وفني في آن واحد، لأن إبراز المعاني الجزئية وإخراجها هو إظهار للجمال. أما تكوين الصور، فقد طبقه ابن الهيثم في الغرفة المظلمة، التي هي أساس اختراع آلة التصوير، فيما بعد، كما في الصورة (رقم-8).

وبهذا أكون قد استنفرت ما عرضت له المصادر: الأدبية، والجغرافية، والتاريخية، والعلمية. وبينت أن كل مصدر من هذه المصادر، قد طرح أو أعاد طرح أو شارك في طرح مسألة أو مجموعة من المسائل التأسيسية المعمارية، طبقا للبداية التي حدد طروحاتها ورسم مسارها المصدر الديني. وشكلت هذه الطروحات والمسائل التأسيسية الفكر المعماري العربي الإسلامي، الذي تم جمعه وتصنيفه في منظومة فكرية معمارية، شكلت بدورها المصادر المعمارية.

6- المصادر المعمارية

إن المصادر السابقة أتاحت لنا أن نتعرف على الفكر المعماري من خارجه، فتعاملنا مع موجبات وجوده وصفاته وخصائصه، وهي وإن شكلت لنا بنية فكره، إلا أن المصادر المعمارية تتيح لنا الفرصة للتعرف عليه من داخله أي من نظام العلاقات فيه. وحتى يتسنى لنا ذلك، يجب علينا أن نصنف هذه المصادر طبقا لموضوعاتها، التي يمكن حصرها كالآتي:

6-1- الدراسات التاريخية المعمارية.

6-2- الدراسات الآثارية.

6-3 الدراسات الخاصة بأحكام البنيان.

(القوانين ونظم البناء والنظريات وبيانات التصميم)

6-4- الدراسات الخاصة بالأنماط المعمارية

(كالمساجد والحمامات والمستشفيات)

6-5- الدراسات الخاصة بعمران المدن وتخطيطها (التخطيط العمراني).

من الواضح أن تصنيف المصادر المعمارية طبقا لموضوعاتها يتضمن إطارين:

1- الإطار الخاص بدراسة العمارة ويشمل الدراسات التاريخية والآثارية.

2- الإطار الخاص بممارسة العمارة ويشمل باقي الدراسات.

1- الإطار الخاص بدراسة العمارة

1-6 الدراسات التاريخية المعمارية

أما الدراسات التاريخية المعمارية فقد عنيت بتوثيق المنجزات المعمارية العربية الإسلامية، وأخص منها تاريخ عمارة المساجد، كتاريخ المسجد الحرام[107]، والمسجد النبوي[108]، والمسجد الأقصى[109]، ولقد اتخذت هذه الدراسات من تقانة الوصف والتحليل الشكلي أسلوبا ومنهجا. أما التوثيق فقد عني بتسجيل نوع المنجز المعماري ووظيفته واسم بانيه والمشرفين على بنائه، وتاريخ بنائه وتحديد مواد البناء وتقانته. وأما الوصف والتحليل الشكلي فقد عنيا بتسجيلا لعناصر، والخصائص، والمزايا، والملامح الفنية، والجمالية، والشكلية.

وهذا ما يشكل بنية الدراسات التاريخية المعمارية التي صاحبها في بعض الأحيان استعمال الرسومات التوضيحية. فالأزرقي(110) (متوفي 250هـ- 864م)، وضح صفة برسم مسقط أفقي للكعبة (شكل- 6)، أما القزويني[111] (600- 682هـ/ 1203- 1283م)، فقد وضح وصفه برسم تفصيلي لمدينة مكة (شكل-7)، كما ذكر السيوطي[112] (813- 880هـ/ 1410- 1475م) أن الخليفة عبد الملك بن مروان أمر بعمل نموذج للصخرة قبل بنائها. وهذا يوضح لأن الرسومات المعمارية على بساطتها لعبت دورا مهما، لا في الدراسات التاريخية فحسب، بل وفي التصميم المعماري كذلك. وهذا ما يكمل بنية هذه الدراسات ويقوي مكانتها.

أما مكانة وموقع هذه الدراسات في الفكر المعماري فيعتمد على مدى حضور الفكر المعماري نفسه، ففي حالة حضوره ينحصر دور الدراسات التاريخية في إطار الوثائقي، كأحد جوانب الفكر المعماري المصاحبة لآلية إنتاجه، فهو جزء من الإنتاج نفسه. وأما في حالة غياب الفكر المعماري، أو تغييبه، فإن الدراسات التاريخية تكون البديل. بمعنى أن تعاد صياغة الدراسات التاريخية بما حوته من وصف إلى منظومة فكرية بغرض توظيفها في عملية إنتاج العمل المعماري، فتصبح بذلك الفكر الذي يملك آلية الإنتاج، وهنا يتوجب علينا أن نتساءل عن حضور الفكر المعماري نفسه، حتى نتمكن من تحديد موقع الدراسات التاريخية فيه، ولكن بعد أن نتعرف على الطبيعة الفنية لهذه الدراسات.

الدارس والمتفحص لمجموعة الكتب التي عرضت لعمارة المساجد، يخلص إلى أنها دراسات تاريخية، فبنية كتاباتها وتقانتها تفرض تصنيفا تاريخيا، لكن وجود المنجزات المعمارية واستمرار أدائها بكفاءة أعلى مما كانت عليه عند بنائها، وعبر تاريخ أدائها، يجعل هذا التصنيف أقرب إلى الدراسات النقدية والتوثيقية منه إلى الدراسات التاريخية، خاصة وأن هذه الدراسات تكررت أكثر من مرة، فلم يخل مؤلف جغرافي[113]، أو تاريخي[114]، أو معجم جغرافي[115]، من وصف للمسجد الحرام، أو المسجد النبوي، أو المسجد الأقصى، أو لغيرها من المعالم والمنجزات المعمارية. ولما كان الوصف التفصيلي سمة من سمات النقد، كما هو سمة من سمات الدراسات التاريخية، فإنني أخلص إلى أن هذه الدراسات تجمع بين النقد والتوثيق والتاريخ. وقد اكتسبت حضورها في الحقل المعرفي المعماري من استمرار وجود المنجزات المعمارية التي عنيت بدراستها ومن استمرار أداء هذه المنجزات لوظيفتها.

كما أن وجودها وأدائها واستمرار وجودها وأدائها للغرض نفسه الذي بنيت من أجله- وهو الصلاة في عمارة المسجد- وبناء مثيل لها واستمرار بنائه لتحقيق الأداء نفسه، ما هو إلا دليل على حضور الفكر المعماري المنتج لها. فموقع الدراسات التاريخية، ينحصر إذن في إطاره الوثائقي، كتاريخ للمنجزات المعمارية (مباني)، وكجزء من عملية الإنتاج المعماري وليس كبديل له.

بقي أن أوضح أن الكتابات التاريخية العربية الإسلامية القائمة على الوصف والتحليل الشكلي والوثيق، كما بينت سابقا، هي التي وضعت بنية الدراسات التاريخية المعمارية والفنية، وأرست أسس وتقانة كتابتهما. وعليه فإن الدراسات التاريخية المعمارية والفنية هي إنجاز عربي وإسلامي استنه الأزرقي (250هـ- 864م) في كتابه، "أخبار مكة وما جاء بها من الآثار"، ونمل على منواله باقي المؤرخين العرب. واللافت أن الدراسات التاريخية المعمارية التاريخية المعمارية والفنية الأوروبية، التي ابتدأت في منتصف القرن الثامن عشر، ليست سوى اقتباس تكرار بنيوي ومنهجي وتقاني للدراسات العربية الإسلامية في مجال تاريخ العمارة والفن. هذه الحقيقة يجب أن تكون حاضرة في وعينا وممارستنا لهذا النوع من الأدب المعماري والفني.

وعليه فإن محاولة استبدال الفكر المعماري العربي الإسلامي، بالكتابات التاريخية من قبل المستشرقين ومن حذا حذوهم من الأكاديميين العرب والمسلمين، هي في واقع الأمر محاولة لتغييب الجسم النظري للفكر المعماري العربي الإسلامي، كأداة لإنتاج العمارة، وذلك لنفي الوعي والأصالة الذين تميز بهما هذا الفكر، ولإخضاعه لنفوذ العمارات الأخرى. ولقد استغلت الدراسات الآثارية للأغراض نفسها، وهذا ما سأبينه بعد أن أعرض لدورها ومكانتها في الفكر المعماري.

2-6- الدراسات الآثارية

حظيت الدراسات الآثارية باهتمام كبير في الفكر المعماري العربي الإسلامي، وربما يكون مرد ذلك إلى ارتباط علم الآثار بفلسفة التاريخ العربي الإسلامي، القائمة على التواصل التاريخي، والدروس والعبر والتنوع داخل الوحدة والتفكر والتأمل. ولقد أشرت إلى تطور فكر المدرسة الآثارية حتى كادت تغطي جميع آثار الحضارات السابقة للإسلام والمعاصرة له، فالديارات النصرانية في ديار المسلمين حظيت بثلاثة عشر مؤلفا[116] ذكرت فيها مواقع الديارات، وحددت أجزاؤها ووصفت أشكالها ونوه بأسماء بناتها وذكرت مواد بنائها وتقانتها، كما عرض المسعودي لمباني العبادة وللهياكل المعظمة عند اليونانيين[117] والروم والصقالبة والصائبة وبيوت النيران الفارسية، فذكر أسماءها وأماكنها ومواد بنائها، وحدد استعمالاتها، ووصف أشكالها وعناصرها المعمارية وبين تقانة بنائها، كما عرض للآثار الفرعونية وأخص منها الأهرام[118] لأنه طرح نقطة في غاية الأهمية، وهي أن الأهرام بنيت مدرجة ثم نحتت وسوى شكلها من أعلى إلى أسفل ليصبح أملس. والواقع أن الآثار الفرعونية حظيت بأكبر نصيب من الاهتمام إذ لم يخل كتاب في الجغرافيا أو التاريخ من عرض لهذه الآثار.

على أنني معني الآن بالكتب الآثارية التي عرضت للأثار الفرعونية فقط. وأخص منها كتاب "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" لعبد اللطيف البغدادي، وخطط المقريزي وكتاب "عجائب الدنيا" لابن وصيف، وكتاب "تحفة الألباب" للغرناطي وأهم هذه الكتب وأكثرها قيمة علمية هو كتاب البغدادي[119] الذي وصف الأهرام وصفا علميا دقيقا، فعرض لخصائص الشكل المخروطي ومدى مقاومته للعوامل الجوية، وذكر مقاساتها وكيفية قياسها، ووصفها من الداخل، وذكر دهاليزها، وممراتها، وحجراتها الداخلية، وما فيها من التوابيت، وذكر تقانة بنائها. وأهم ما يعنيني هنا هو أن البغدادي أشار إلى وجود طبقة من الملاط (المونة) الرقيق جدا بين الحجارة لم يعرف صفته، وهذا خلاف الرأي السائد حاليا وهو أن الأهرام بنيت بدون مونة. كما أشار البغدادي إلى فشل محاولته لقراءة الكتابات الهيروغليفية. أما كتاب المقريزي فسأعرض له لاحقا. أما الغرناطي[120] فقد استعمل الرسومات التوضيحية في توثيقه للآثار الفرعونية فرسم واجهة للهرم المدرج (شكل-8) وواجهة الهرم الأملس (شكل-9) وواجهة لمسلة عين شمس (شكل- 10).

والواقع أن الرسومات التوضيحية تعتبر إسهاما جديدا ومميزا في الدراسات الآثارية بالرغم من محدودية دورها فكتاب الشابشتي عن الديار النصرانية في بلاد المسلمين كان مصورا[121] ومزخرفا وملونا ولكنه لم يصل إلينا. كما استعمل القزويني[122] رسما توضيحيا في دراسته لمنارة الإسكندرية (شكل-11). قد لا تكون هذه الرسومات ذات قيمة فنية لخلوها من التفاصيل إلا أن استعمالها مع مثيلاتها السابقة يعطيها قيمة تأسيسية داخل الحقل المعرفي المعماري.

بقي أن أشير إلى دور الكتابات والنقوش التي تزين واجهات المباني في الدراسات الآثارية العربية الإسلامية، والتي كاد أن يكون معدوما، لولا محاولة البيروني[123] دراسة حضارات الهند، ومحاولة الهمداني[124] لدراسة المنجزات المعمارية للحضارة اليمنية، حيث نجح في توثيق هذه المنجزات، وترجم جميع الكتابات والنقوش المكتوبة على واجهاتها. وقد يكون السبب في ضعف أو محدودية دور الكتابة في عملية التفسير الآثاري، وهو عدم وجود ضرورة حضارية لدراستها أو ربما لتواصل أسباب المعرفة بين الحضارات السابقة للإسلام والحضارة العربية الإسلامية، حيث أن شعوب هذه الحضارات اعتنقت الإسلام، وشكلت مع الحضارة العربية في اليمن، والحضارات العربية السامية في العراق، الرصيد التقاني للعمارة العربية الإسلامية.

مما سبق يتضح لنا أن الدراسات الآثارية في المرحلة العربية الإسلامية أحدثت نقلة نوعية في علم الآثار، فاستكملت جوانبه، ووسعت أسلوب استقصائه، فطرحت عدة مسائل تأسيسية في الدراسات الآثارية، كاستعمال الرسومات التوضيحية، وبيان طريقة بناء الهرم، واستعمال الكتابة في عملية التفسير الآثاري ومحاولة تنقيح المعرفة بواسطة التفسير العلمي للآثار الذي استعملته الجاحظ، وغير ذلك مما عرضت له. وبالدراسات الآثارية يكون الإطار الفكري الخاص بدراسة العمارة قد اكتمل، ولكن ينبغي تحديد مكانة هذه الدراسات وموقعها في الفكر المعماري العربي الإسلامي، قبل أن أنتقل إلى الإطار الخاص بممارسة العمارة.

بينت أن هذه الدراسات خاصة بالآثار، أي ببقايا الحضارات، فهي لا تصلح لدراسة الحضارات القائمة، كما أنها لا تصلح لدراسة الحضارات الموثقة، لأن الغرض من الدراسات الآثارية هو التوثيق، الذي يلغي وجوده الحاجة إلى الدراسات الآثارية. استنادا إلى ذلك فيمكننا التقرير أن الدراسات الآثارية لا تصلح لدراسة العمارة العربية الإسلامية، وذلك لحضور هذه العمارة واستمرار أدائها، كما وضحت ذلك في الدراسات التاريخية، ولأن جميع المنجزات المعمارية العربية الإسلامية موثقة تاريخيا كما بينت ذلك أيضا، في تلك الدراسات.

أما هذه الحقائق يمكننا التقرير أن الدراسات الآثارية لم تسهم في عملية الإنتاج المعماري العربي الإسلامي أو في آليته، ولكنها أسهمت في توسعة الحقل المعرفي للدراسات المعمارية العربية الإسلامية خاصة بما وثقته عن العمارة العربية قبل الإسلام. وأمام هذه الحقائق يمكن التقرير أيضا، أن محاولة تصنيف الدراسات التاريخية التي أشرت إليها سابقا، كدراسات آثارية ومن ثم توظيفها كبديل للفكر المعماري، أمر يفتقر إلى الموضوعية والدقة العلمية، ويهدف إلى تغييب الفكر المعماري، لإفقاد العمارة العربية الإسلامية أصالتها، ونفي الوعي في ممارساتها.

بهذا أكون قد عرضت للدراسات التاريخية والآثارية، وبينت مكانهما في الفكر المعماري العربي الإسلامي، كإطار فكري خاص بدراسة العمارة لا بممارستها، وإن إسهامها اقتصر على توسعة وإثراء المحتوى الفكري المعماري العربي الإسلامي. أما فيما يلي من دراسة وتحليل فسأعرض للإطار الفكري الخاص بممارسة العمارة، مبتدءا بالأحكام والقوانين.

2- الإطار الخاص بممارسة العمارة

3-6- الدراسات الخاصة بالأحكام والقوانين (النظريات وبيانات التصميم)

أشرت إلى أن المصادر الدينية عرضت للمفاهيم العامة للفكر المعماري في خمسة طروحات فكرية، تمحورت حولها جهود الفقهاء والمفكرين، فتوسعوا في بحثها إلى أن أوصلوها إلى مرحلة الإحكام المنظمة لعملية البناء، فلم يخل كتاب فقهي من أمهات كتب الفقه[125] من باب يعرض فيه لأحكام البناء. كما أفردت له مجموعة من الكتب المتخصصة، عرضت لموضوعات معينة في أحكام البناء، ككتاب الجدار[126]، ومنها ما جاء عاما وشاملا، ككتاب الإعلان بأحكام البنيان[127]، لابن الرومي.

وتأتي قيمة هذا الكتاب من كون مؤلفه بناء (مهندسا معماريا)، الأمر الذي جعل من هذا الكتاب مصنفا معماريا، فجاء موضحا ومكملا للطروحات الفكرية الخمسة التي أفرزتها المصادر الدينية، إذ عرض لمجموعة من الأحكام التي شملت الحقل المعرفي المعماري: فمنها ما هو خاص بالإنشاء كأحكام الجدار، ومنها ما هو خاص بالتحكم البيئي كحقوق الارتفاق، ومنها ما هو خاص بالملكية المشتركة والانتفاع العام. كمصادر المياه. على أن أهم ما عرضه له الكتاب هو أحكام نفي الضرر، لما اتصفت به من شمولية، والتي سأعرض لها بعد أن أعرض لأحكام الجدار المنهار. عرض الفقه الإسلامي لأحكام الجدار المنهار بالتفصيل، فوضح أنه إذا كان السبب في الإنهيار إهمال أو قصور البناء، فيجب عليه إعادة بنائه على نفقته الخاصة، عملا بالقاعدة الشرعية القائلة: "الغنم بالغرم"[128]، أي من ينال نفع الشيء يحتمل ضرره. وهذه الأحكام الجزائية، التي جاءت لتحكم إتقان صناعة البناء، وضحت لنا حضور شريعة حمورابي في الفكر المعماري الإسلامي، ولكنها تميزت بأنها كانت مسبوقة بمجموعة من الأحكام[129] الخاصة بملكية الجدار وشروط الانتفاع به وأسلوب بنائه، وهذا ما أكسبها قيمتها الجزائية.

أما أحكام نفي الضرر، فقد وضح ابن الرامي أن الضرر يتأتى من الأسباب التالية: الدخان، الرائحة، الضوضاء، سوء استعمال الطريق، والنظر من الكوى والأبواب. أما الضرر من الدخان فينقسم إلى قسمين[130]: الأول دخان التنور والمطابخ، وهذا لا يمنع لعدم إمكانية الاستغناء عن مسبباته وهي عملية الطبخ. والثاني دخان الحمامات والأفران، وهذا يمنع لاحتوائه الضرر بالسكان المجاورين لمصدر الدخان، ولهذا يجب أن يكون خارج المناطق السكنية لتفادي إحداث الضرر. وكذلك الأمر بالنسبة للرائحة[131]، فيمنع إحداث مدابغ الجلود داخل المناطق السكنية، لما تسببه من رائحة النتن المنبعثة من عملية الدباغة لسكان الدور المجاورة، كما يمنع إحداث المجاري المكشوفة لما تسببه من رائحة كريهة. وكذلك الأمر بالنسبة للصوت[132]، فلا يجوز ممارسة أعمال داخل الدور تسبب الضوضاء إذ ربما يتسبب عنها اهتزازات تؤدي إلى انهيار الدور المجاورة، هذا بالإضافة إلى ما تحدثه من إزعاج لسكان الدور المجاورة. كما يمنع بروز[133] البناء على الطريق النافذ، لما يحدثه من اعتداء على حرم الطريق وإعاقة الحركة فيها.

أما ضرر النظر من الكوى [134] والأبواب، فيترتب عليه الاعتداء على خصوصية الأسر، وانهيار القيم والأخلاق والسلوك الاجتماعي، فجاء نفي حدوثه أكثر إلحاحا من أي عنصر آخر. ولقد تم ذلك بوسائل معمارية، حققت مفهوم الوقاية من الانهيار الأخلاقي والاجتماعي لمن يمكن إغراؤهم بالنظر إلى بيوت وعورات غيرهم من خلال الكوي. وهذه الوسائل تباينت تبعا لظروف حدوثها، ففي حالة الكوي التي تقع بين الدور[135]، عولجت بألا يقل ارتفاع جلستها عن ارتفاع قامة رجل[136]، واقف على سرير ارتفاعه من 4-5 أشبار، أي أن يكون ارتفاع جلسة الشباك حوالي 3م[137] (شكل-12)، وذلك حتى لا يتمكن سكان البيوت من النظر إلى جيرانهم. أما إذا كانت الكوة مطلة على الطريق[138]، فيجب ألا يقل ارتفاع جلستها عن منسوب الطريق، عن سبعة أشبار، حوالي 1.98م (شكل-13)، الأمر الذي يتعذر معه النظر إلى داخل البيوت وكشف عورات سكانها. وبهذا الحل المعماري يتحقق مفهوما الخصوصية للسكان والوقاية لمستعملي الطريق، وذلك بعدم تمكينهم من النظر إلى بيوت الناس، مما يجنبهم الوقوع في الخطأ.

أما نفي الضرر من الأبواب، فحالاته كثيرة والآراء فيه متباينة، ولكنها تهدف إلى تحقيق الخصوصية في الاستعمال، والواقع أن ما عرضه له الكتاب أكبر من أن تتسع له هذه الدراسة، لكننا نخلص إلى أن هذه الأحكام (وإن كانت تبدو للوهلة الأولى وكأنها قوانين تنظيمية وجزائية) أحدثت نقلة نوعية في الفكر المعماري، فارتقت به من مرحلة الطروحات إلى مرحلة التنظير، فأرست بذلك مجموعة من المسائل التأسيسية داخل الحقل المعرفي المعماري، كمفهوم استعمالات الأراضي: التي منها ما هو خاص بالسكن، ومنها ما هو خاص بالحرف والصناعات، ومنها ما هو خاص بالأسواق وطرق المواصلات.

ومن المسائل التأسيسية التي أرستها الأحكام: مفهوم الخصوصية، ومفهوم الوقاية اللذان تمت ترجمتهما معماريا واستثمارهما في توفير أسباب الراحة والأمان، والحفاظ على القيم الاجتماعية والأخلاقية لأفراد المجتمع. ومن هذه المفاهيم أيضا مفهوم المتانة[139]، الخاص بالحفاظ على سلامة ومتانة الدور والمنشآت المعمارية الأخرى. ولقد وظفت هذه المفاهيم في عملية التصميم المعماري ضمن الإطار الخاص بممارسة العمارة، والتخطيط العمراني الذي ستتضح نظرياته فيما يلي من دراسة وتحليل.

6-4- الدراسات الخاصة بالأنماط المعمارية

تميز الفكر المعماري العربي الإسلامي بوجود دراسات خاصة بأنماط معينة، كالسكن والمساجد والحمامات والمستشفيات (البيمارستانات).

6-4-1- المساكن

أما عمارة المساكن فقد حظيت بأكثر من دراسة إذ عرض لها الجاحظ والمسعودي، وقد أشرت إليها في مكان سابق من هذه الدراسة. حيث كانت الأولى خاصة بالبيئة الحضرية أو بالعمران الثابت أو بيوت المدر. والثانية كانت خاصة بتخير المكان لمنازل البيئة البدوية أو العمران المتنقل، وسأعرض هنا لمحاولة ثالثة شاملة لعمران البيئتين المتنقل والثابت، قام بها ابن قتيبة وأفرد لها كتابا (بابا) في كتاب الجراثيم[140] أسماه "باب الرجل وآلاته والأواني في السفر والحضر والدور والبيوت والأخبية والأبنية". تناول فيه حاجات الإنسان في السفر والإقامة، فعرض لمتاع البيت الضروري في الحاتين، كما عرض للأدوات والآلات المستعملة في بناء الأخبية، ثم عرض للأخبية، فحدد عناصرها، ومواد بنائها، وأجزائها الداخلية، وطريقة بنائها، فحدد وظيفة كل عنصر: "فالسبيج"[141] عبارة عن مسح مخطط يكون في البيت يستر به ويفترش، و"الأراض" بساط ضخم من وبر أو صوف، و"الكفاء" الشقة التي تكون في مؤخر الخباء، و"الروحة" سترة في مؤخرة الخباء، و"الخمائر" حجارة تنصب حول البيت، كبديل للنوي لمنع دخول مياه الأمطار إليه، و"رواق" البيت "سماوته"، أي ارتفاعه عن الأرض من بعد العمود الأوسط. و"الطوارف" جوانب الخباء، و"السجفان" كاسرات الشمس، و"الأطناب" الجبال التي يشد بها الخباء، و"الصقوب" الأعمدة، واستمر في عرضه لباقي عناصر الخباء مبينا وظائفها ومكانها في بنية الخباء.

وبالكيفية نفسها عرض للبناء، فصنف أنواع المباني[142] تبعا لطريقة بنائها، فمنها "البروج المشيدة" أي المبنية بالجص، ومنها البيت "المجرد المسنم"، وهو البيت الطويل المائل السقف، والبيت "المعرس" أي البيت الذي بوسطه عرس (حائط) ليسهل عملية التسقيف، ثم انتقل ليوضح عناصر[143] البيت الداخلية فذكر: المخدع والكنة أو السقيفة، والفناء، وعقر الدار وسطها، و"المشارب" الغرف، و"العنة" حظيرة الإبل، و"الكنيف" بيت الخلاء. ثم عرض لألعاب الأطفال[144] كالأراجيح والزحالف، ثم انتقل ليعرض لمواد البناء[145] وأدواته، كالساف، والمدماك، والملاط، والمطمار"، أي الخيط الذي يستعمله البناء، و"الحدأة"، أي الفأس ذات الرأسين و"الصاقور"، وهي الفأس المدببة الرأس، و"العتلة"، وغير ذلك.

ثم انتقل ليعرض لمتاع[146] البيت، فعرض للقدور وأدوات الطبخ والأواني، واللافت للنظر أنه عرض لهذه الأواني تبعا لسعتها ووظيفتها، فيقول: "أعظم الأقداح يكاد يروي عشرين، والصحن مقارب، ثم العس يروي الثلاثة والأربعة، ثم القدح يروي الرجلين... ثم القعب يروي الرجل... وأعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها، وتسع الخمسة ونحوهم، والمنكلة وتسع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تسع الرجل[147]".

بهذا الأسلوب العقلاني وضح ابن قتيبة العناصر التقانية، والاعتبارات الترفيهية، والمعايير الوظيفية، التي تحكم التصميم المعماري للبيوت، والذي سنرى له استمرار في عمارة المساجد.

6-4-2- المساجد

إن عمارة المساجد جاءت لتلبية لحاجة دينية وهي الصلاة، فكان لابد أن يلائم التصميم المعماري للمساجد وظيفة الصلاة، فاجتهد الفقهاء المسلمون في تحديد أحكام الصلاة، وبالذات صلاة الجماعة، وطبقوها على عمارة المساجد. ولقد تعددت وتنوعت اجتهادات الفقهاء في هذا الحقل، وسأكتفي هنا بعرض ما تضمنه كتاب الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، الذي جاء جامعا لأحكام الصلاة، ولأحكام بناء المساجد، التي أمكن ترجمتها إلى عناصر وفراغات وأشكال معمارية، فشرط الاتصال وتراص الصفوف[148] في الصلاة، يتطلب أن يخلو صحن المسجد من الأعمدة التي تقطع صفوف المصلين. ولما كانت الضرورة الإنشائية تقتضي وجود هذه الأعمدة، فكان لوجودها تخريج عملي عملا بالقاعدة الشرعية[149]: "الضرورات تبيح المحظورات". كما أن مفهوم الاقتداء"[150] اقتضى ألا يكون في المساجد حائل[151]، يمنع تلاحق وتتابع صفوف المصلين، فالمسجد المكون من صحن مسقوف وفناء مكشوف، يقتضي أن يكون الجدار الفاصل بينهما نافذا، بمعنى أن يكون في هذا الجدار فتحات تحقق الاتصال بين الصحن والفناء، ليتحقق الاقتداء بين الإمام والمصلين. كما أن مفهوم الاقتداء يتطلب تحديد المسافة بين الإمام والمصلين. كما أن مفهوم الاقتداء يتطلب تحديد المسافة بين الإمام والمأموم، بحيث لا تزيد على

300ذراع[152] أي حوالي 169.5 مترا. والتحديد هنا ليس قانونا وإنما هو الحل الأمثل لمساحة المساجد، لكي يكون الخطاب وما يتضمنه من وعظ بين الإمام والمأموم، أقوى وقعا وأقوى تأثيرا. ولكن إذا دعت الضرورة زيادة مساحتها فلا بأس في ذلك عملا بالقاعدة الشرعية التي تقدم ذكرها. كما أن مكانة المسجد وهيبته اقتضت ألا يكون الدخول إلى صحن الصلاة مباشرة، وهذا ما دفع سيدنا عمر بن الخطاب إلى استحداث الفناء حول الكعبة، ليجعل الوصول إليها مرحليا، والدخول إليها غاية كما في قوله[153]: "إن الكعبة بيت الله ولابد للبيت من فناء، وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم...".

مما سبق يتضح دور الأحكام الفقهية في الحقل المعرفي المعماري، وكيف تم ترجمة هذه الأحكام إلى نظريات معمارية تحكم عملية التصميم. وبهذا أستطيع التقرير أن عمارة المساجد هي بداية تنظير الفكر المعماري العربي الإسلامي، ولقد تتابعت عملية التنظير في عمارة الحمامات، والمستشفيات.

6-4-3- الحمامات

حظيت عمارة الحمامات باهتمام مميز، فهي مظهر حضاري، ارتبطت بالنظافة التي هي جزء من الإيمان. ولقد أفرد لها أكثر من اثنى عشر مؤلفا[154] منها مؤلف الكوكباني: حدائق التمام في الكلام عن الحمام، والذي سأعرض لما تضمنه، من مفاهيم أثرت في، أو حكمت، تصميم الحمامات.

بين لنا هذا الكتاب أن الحمامات هي أحد الشروط السبعة التي يجب توافرها في المصر "ليعتبر هذا المصر مصرا"، وهي[155]:

المصـــــر في صـــــحة التجميـــــع مشـــــترط فـــــاسمع حقيقـــــة مـــــا يحويـــــه تفصـــــيلا

والوقـــــــاض طبيـــــــب جـــــــامع وكـــــــذا ســـــــوق ونهـــــــر وحمـــــــام كمـــــــا قـــــــيلا

ولقد عرض الكتاب للاعتبارات والشروط الأخلاقية، والاجتماعية، والأمنية، والنفسية، والصحية، والطبية، التي حكمت تصميم الحمامات. فالغرض من عمارة الحمامات هو النظافة ومن ثم العلاج من بعض الأمراض كالحميات وما شابه ذلك.

أما الأسباب الأخلاقية، والاجتماعية، والأمنية، فاقتضت وجود المدخل[156] وبه الإدارة، والمخلع[157] وهو مكان تغيير الملابس ومخزن المناشف والأرز. كما اقتضت وجود خزائن لحفظ الأمانات الخاصة بالزبائن. أما الأسباب النفسية فاقتضت وجود الصور الجميلة[158] على الحيطان، لأنها مريحة للنفس مجلبة للفرح والسرور. وأما الأسباب الصحية فاقتضت أن يكون الحمام عاليا[159] مرتفعا، ليساعد على تفريق الأنفاس لتقلل من فساد الهواء وتلوثه. كما اقتضت أن تكون أرضيته من الرخام[160] الذي لا يسمح بالانزلاق، كما يجب أن تكون مجاري مياه الحمامات كذلك من الرخام لتسمح بجريان الماء، ويجب ألا توجه الحمامات إلى الجنوب[161]، وأن تكثر فيها فتحات الإضاءة.

أما الأسباب الطبية فقد اقتضت أن يقسم الحمام إلى ثلاث غرف: الأولى، مبردة رطبة، والثانية، رطبة والثالثة، مسخنة مجففة. وبذلك يكون الانتقال من هذه الغرف بالتدريج فلا يؤثر ذلك على صحة المستحمين. بهذا أكون قد عرضت لمجموعة المفاهيم والبيانات المتعلقة بتصميم الحمامات، التي ورد ذكرها في حدائق النمام. وربما تكون هناك مفاهيم أكثر دقة في كتب الحمامات الأخرى، وأخص منها: رفع اللثام عن أحكام الحمام[162] لابن طولون، وكتاب النزهة الذهبية في أحكام الحمام الشرعية والطبية[163] للمناوي. وحيث أنني لست هنا بصدد الحصر، وإنما بصدد التنويه بوجود أنماط معمارية تخضع في تصميمها لمنظومة من الأحكام، والبيانات، والمفاهيم، والنظريات المعمارية، بينت ثلاثة أنماط منها، حتى الآن هي: المساكن والمساجد، والحمامات فسأعرض للنمط الرابع والأخير، وهو عمارة المستشفيات.

6-4-4- المستشفيات

المستشفيات هي أحد الشروط السبعة التي عرضت لها سابقا، كشروط لاعتبار المصر مصرا، ولقد تعرفنا على عمارة المستشفيات من وثائق الوقف وكتب التاريخ. وسأبين المفاهيم المعمارية التي حكمت عمارتها كما جاء في وثائق الوقف، لأنها حددت منهجية التصميم والبناء، فتكون بذلك أكثر دقة وأعمق دلالة. من تقانات الوصف التي استعملتها كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات.

سأعرض فيما يلي للمفاهيم المعمارية التي حوتهما وثيقتا[164]. وقف مارستان السلطان قلاوون. الأولى صادرة عن السلطان قلاوون نفسه كأمر للمباشرة بالعمل، أما الثانية فصادرة عن "مجلس الشرع الشريف"، وخاصة بصيانة وتحديث المارستان المذكور. والدارس للوثيقتين، يخلص إلى أنهما أشبه بالدراسات التأسيسية التي تسبق التصميم المعماري، فقد حوت كل منهما برنامج المشروع (عناصره) ووصفا لطبيعة هذه العناصر ووظيفتها.

ابتدأت الوقفية الأولى بتحديد الأهداف[165] من بناء المارستان، ثم انتقلت إلى تحديد موقعه، ثم وضحت طبيعة نشاطه، وعرضت للجهازين: الفني والإداري، "كالأطباء، والجرائحيين (الجراحين)، والطبائعيين (أطباء الباطنية)، والكحالين (أطباء العيون)، وطباخي الشراب (الصيادلة)، والمزاور، والطعوم، وصانعي، المعاجين، والأكحال، والأدوية، والمسهلات المفردة والمركبة. وعلى القومة، والفراشين، والخزان، والأمناء، والمباشرين، وغيرهم..."[166] ثم انتقلت الوقفية لتضع بعض التصورات الإدارية للمارستان، وكيفية تشغيله، وتوفير احتياجاته اليومية من العقاقير، والطعام، واحتياجاته من الأدوات، والأواني، والمفارش، والأغطية، وما إلى ذلك.

أما العناصر المعمارية فقد جاء ذكرها متضمنا وليس صريحا، كما هو الحال في الوثيقة الثانية، حيث تم تحديد هذه العناصر، ووصف استعمالها بدقة متناهية، وسأعرض لها كما جاءت في هذه الوثيقة توضيحا لقيمتها العلمية[167]:

"... وجميع المارستان بصدر الدهليز الجامع لذلك، ومكتب السبيل علو باب القيسارية المستجدة والصهريج بداخل المارستان المرقوم وما يتبع ذلك من الأواوين والقاعات والأروقة والخلاوي والطباق وبيوت المختلين من الرجال والنساء، وأواوين الضعفاء والمرضى وفساقي المياه وبيوت الأخلية... المسطبة الكبرى بالمارستان المرقوم مرصدة، لجلوس مدرس من الحكماء والأطباء، عارفا بالطب وأوضاعه... ولجلوس المشتغلين بعلم الطب على اختلافه، وتكون المسطبة المقابلة لها مرصدة لجلوس المستخدمين والمباشرين لإدارة البيمارستان المرقوم، وتكون القاعة التي على يمنة باب الدخول للبيمارستان المرقوم مرصدة لحفظ ما يفرق من حواصل البيمارستان المذكور من أشربة وأكحال وأدوية مفردة ومركبة ومعاجين وأدهان ودرياقات ومراهم وشيافات [فتائل] وغير ذلك، وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب الثالث مرصدة لإقامة الرمداء... ويكون المخزن الكبير المتوصل إليه من الباب السادس مرصدا لحفظ الأعشاب وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب السابع برسم إقامة المرضى والفقراء... وتكون المسطبة الكبرى المتوصل إليها من الدهليز الذي بأوله باب المطبخ برسم إقامة المجروحات والمكسورات من النساء، وتكون القاعات الثلاث الباقيات من المارستان المذكور المتوصل إلى ذلك من الدهليز المتوصل منه إلى المطبخ المرصد لطبخ أشربه وإلى المخزنين بجوار المرصدين لحفظ حواصل المطبخ مرصدات برسم إقامة المريضات... وتكون القاعة المرصدة لإقامة المختلين من الرجال... وكذلك القاعة المجاورة لها فإنها مرصدة برسم المختلات من النساء، وإن مولانا السلطان [قلاوون]... في الإنشاء على سطح بيوت المختلين من الرجال والنساء مساكن برسم القومة والخدام بالمارستان...".

وبعمارة المستشفيات يتضح لنا دور الدراسات الخاصة بالأنماط المعمارية في الحقل المعرفي المعماري، وما أرسته من مسائل تأسيسية فيه، وبالذات في الإطار الخاص بممارسة العمارة، والذي تمثل في ترجمة الأحكام الخاصة ببعض المباني إلى مفاهيم، وبيانات تصميم، ونظريات معمارية، تحكم عملية التصميم المعماري. كما تمثل في إشراك المعايير العقلانية، والاعتبارات الأمنية، والنفسية، والصحية، والطبية، في عملية التصميم. على أن أهم مسألة تأسيسية طرحتها الدراسات الخاصة بالأنماط المعمارية هي الدراسات التأسيسية التي تسبق التصميم المعماري، فتصنف متطلباته، وتحدد عناصره، وتحكم منهجيته. فالتصميم جاء تطبيقا للمتطلبات التي تم تصنيفها، وهي الأنشطة المراد ممارستها داخل البناء. وبهذا تكون الدراسات التأسيسية التي أشرت إليها قد أحدثت ثورة داخل الحقل المعرفي المعماري، تمثلت في أن يكون التصميم موائما وملائما للأنشطة التي سيتم احتواؤها وممارستها داخله. ولقد أثر ذلك على الشكل المعماري الخارجي فنشأت الأنماط المعمارية التي أشرت إليها، والتي شكلت النسيج المعماري للمدينة العربية الإسلامية، وهو العنصر الأكثر حضورا في بنية التخطيط العمراني والحضري، الذي سيكون موضوعنا الأخير، الذي أفرزته المصادر المعمارية.

6-5- التخطيط العمراني

عرضت فيما سبق لنظريات عمر بن الخطاب في تخطيط المدن، كما عرضت للتقسيمات السياسية والإدارية للجزيرة العربية، وأشرت إلى استعمال تقانة الألوان في المخططات الهيكلية لأقاليم الجزيرة العربية. كما عرضت إلى دور الأحكام والقوانين المنظمة لأعمال البناء في إرساء بعض المفاهيم التخطيطية، كتحديد استعمالات الأراضي، وحقوق الارتفاق[168]، وحقوق استعمال الطرق[169] وغيرها. ثم عرضت للأنماط المعمارية التي تشكل النسيج العمراني داخل المدينة وتؤكد مفهوم استعمالات الأراضي. والحقيقة أن هذه المفاهيم مجتمعة تشكل علم التخطيط العمراني الحضري. وقد وردت هذه المعلومات مجتمعة في المصادر الجغرافية وأدب الرحلات، وفي الدراسات الخاصة بتاريخ المدن، وأخص منها: أخبار مكة، للأزرقي، وتاريخ دمشق، لابن عساكر، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي[170]، وسأعرض للأخير لأن مادته أقرب إلى الدراسات التخطيطية منها إلى التاريخية.

ابتدأ الكتاب بالموقع الجغرافي[171] العام لمصر، فعرض لخصائصها المناخية والطبوغرافية[172]، ثم عرض لمصادر مصر الطبيعية[173]، ولمواردها الاقتصادية، ولتقسيماتها السياسية والإدارية[174]، ثم عرض لطبائع سكانها وسلوكهم، ولأماكن تجمعاتهم البشرية[175]، فذكر المدن والقرى، وعرض لتاريخها، وبين خصائصها، ووثق معالمها الآثارية[176]. ثم انتقل إلى مدينة القاهرة، فحدد موقعها[177]، وعرض لتنظيمها السياسي والإداري[178]، ثم عرض لنسيجها المعماري، فتعرفنا على استعمالات الأراضي من خلال طبيعة ووظيفة الأنماط المعمارية المشكلة للنسيج المعماري، وعلى المناطق السكنية من خلال ما عرض له الكتاب من حارات[179]، وخطط[180]، وخوخ[181]. وتعرفنا على المناطق التجارية من خلال ما عرض له الكتاب من قياسر[182]، وأسواق وسويقات[183]، وحكر[184]، وكذلك الحال بالنسبة للمناطق الصناعية[185] الرئيسة، التي كانت في منطقة الروضة، أي خارج مدينة القاهرة في عصر المؤلف. وتعرفنا كذلك على المناطق الترفيهية، من خلال ما عرض له من مناظر[186] الخلفاء، ومن الرحاب[187] والبساتين، والبرك[188]. كما تعرفنا على شبكة المواصلات، من خلال ما عرض له المؤلف من طرق، وأزقة[189]، ودروب[190]، وميادين[191]، وقناطر[192] وجسور[193].

وضمن هذه التقسيمات الرئيسة، عرض الكتاب لجميع الأنشطة والخدمات التي كانت في المدينة، فعرض لجميع الجوامع[194]، والمساجد، والخوانك[195]، والزوايا[196]، وحدد مواقعها داخل المناطق السابقة. كما ذكر مباني العبادة اليهودية[197]، والمسيحية[198]، وحدد مواقعها. كما عرض لمباني الخدمات التعليمية، فذكر مدارس[199] القاهرة، وحدد مواقعها ضمن المناطق السابقة. كما عرض لمباني الخدمات الطبية البيمارستانات[200]، والخدمات العامة كالحمامات[201]، والفنادق، والخانات[202]، وحدد مواقعها جميعا ضمن المناطق السابقة.

فإذا تأملنا منهجية المقريزي (776-845هـ/ 1364= 1441م) في توثيقه لواقع حال الإقليم المصري، ولواقع حال مدينة القاهرة في عصره، ولما حوته من نسيج معماري، تم إنجازه ضمن إطار الأحكام والقوانين المنظمة للبناء، وبمنطق الدراسات التأسيسية التي أشرت إليها في الوقفيات، خلصنا إلى أن توثيق المقريزي يوضح بل يرسم لنا التنظيم الهيكلي لمدينة القاهرة، بكامل عناصره وكافة أنشطته، والواقع أن هذا التنظيم يمثل حضورا واضحا، لآراء ومفاهيم عمر بن الخطاب التخطيطية، وأخص منها المعايير الإستراتيجية في اختيار مواقع المدن، وتخطيط المناطق السكنية.

وأخيرا فإن محاولة المقريزي ليست تجميعا لعناصر ومفاهيم علم التخطيط العمراني التي عرضت لها سابقا فحسب، بل إطارا مرجعيا لهذا العلم، له حضوره في الحقل المعرفي المعماري المعاصر. وبالمصدر المعماري أكون قد عرضت إلى مرحلة تكوين الفكر المعماري العربي الإسلامي، الذي تدرج من بداية واعية، إلى مرحلة تشكل ممنهجة وعقلانية، ثم إلى منظومة فكرية مكتملة التكوين. وخلصت الدراسة من كل ما تقدم عرضه إلى أن الفكر المعماري العربي الإسلامي، بشمولية محتواه وإمكانات أدائه، وآلية إنتاجه فكر مستقل بذاته، محصن بقدراته، له حضوره المعاصر بالرغم من محاولات تغييبه، ولكن ينقصه الاعتراف، ويعوزه التوظيف. أما الاعتراف فيتطلب أن تتبناه كليات العمارة في جامعاتنا العربية، لا كمادة تاريخية معنية بتاريخ بناء بعض الإنجازات المعمارية، وبخصائصها الشكلية، بل كفكر شامل له حضوره في المواد الدراسية الأخرى. وأما التوظيف فيتطلب أن تتبناه المنظمات والمؤسسات البلدية في طروحاتها وتوجهاتها، والمكاتب الاستشارية في ممارستها. وفي إنتاجها المعماري، لا كموجة تركب، بل كقناعة فكرية وانتماء حضاري، لأن الفكر المعماري العربي الإسلامي فكر يتصف بالديمومة والاستمرار، ويفرض حضورا مستمرا، وهذا ما نأمل حدوثه.

خاتمة

خصصت هذه الدراسة لنشأة الفكر المعماري العربي الإسلامي وتطوره. فعرضت من خلال مقدمة طويلة إلى واقع العمارة في العالم العربي، وبينت سيطرة مناهج ومفاهيم العمارة الغربية في التعليم المعماري وفي الممارسات العملية. وعرضت لدور الاستشراق وعمارة ما بعد الحداثة في تغييب الفكر المعماري العربي الإسلامي، وتشويه مفاهيم العمارة الإسلامية. وبينت كيف شكلت هذه المفاهيم الخاطئة وعي الأكاديميين والمعماريين الممارسين العرب والمسلمين. كما بينت الدراسة كيف أوصلتهم هذه المفاهيم إلى حالة من التبعية الفكرية والعملية. يستوردون المعرفة ويجترونها اجترارا، ولا يقوون على إنتاجها، ولا حتى على معارضتها.

ثم عرضت الدراسة للأهداف المنشودة منها، وهي بيان بداية نشأة الفكر المعماري العربي، ومراحل تشكله، حتى اكتمال تكوينه كمنظومة فكرية. وحددت الدراسة منهجها باستنفار مبادئ وقيم ومعايير ومفاهيم الفكر المعماري العربي والعربي الإسلامي. فتلمست الدراسة جذور هذا الفكر في الحضارات السامية العربية، التي تمثل مرحلة العروبة غير الصريحة في تاريخ الجنس العربي. فعرضت لأسباب التواصل العلمي والفكري والتقاني، التي أنجزتها هذه الحضارات: كنظرية المثلث القائم الزاوية، والمقياس الإنساني والنسب، والشبكيات، ولأنظمة وأحكام وتشريعات البناء، ولتقانات البناء بالطوب والحجر، ونفت الدراسة الدعاوى اليونانية التي نسبت هذه الإنجازات لها وفندت الدعاوى اليونانية بالأدلة والآثارية والعلمية.

ثم تواصلت الدراسة لتبين الجذور التاريخية للعرب البائدة، فبينت ما ورد عنها في القرآن الكريم، وعرضت لما نسب إليها من مكتشفات آثارية. كما عرضت لما وثقه المؤرخون المسلمون عن هذه الحضارات، وما نسبوا إليها من أعمال معمارية. وبينت الدراسة أن عمارة العرب البائدة والعاربة لم تشكل بداية للعمارة العربية لأنها لم تترك لنا مفاهيم نظرية مجردة، بل بيئية وتقانية محددة، استنتجت استنتاجا، واشتقت اشتقاقا، ولم تطرح بيانا، بمعنى أنها نتاج منهجية التجربة والخطأ، وليست نتاج منهجية التفكر والتأمل.

ثم تلمست الدراسة بداية الفكر المعماري في مرحلة العروبة الصريحة في الجاهلية، بشقيها: الحضري والبدوي، ووجدت في الشعر الجاهلي، والمصادر العربية الإسلامية، ما يؤكد وجود بداية غير واعية. فقد أفرز هذان المصدران مدرستين: آثارية، وتاريخية، حوتا من المفاهيم المعمارية ما جعل من هذه البداية مشروع فكري تحت التأسيس. لكن الإسلام أعاد تشكيل وتحديد مسار هذا المشروع طبقا لنظاميه: العقدي، والمعرفي، فحول البداية غير الواعية للفكر المعماري العربي في الجاهلية إلى بداية واعية في الإسلام. وارتقى بها من مشروع فكري تحت التأسيس إلى مشروع فكري قيد التأسيس.

ثم تواصلت الدراسة لتحدد مصادر الفكر المعماري العربي الإسلامي الستة: المصادر الدينية، والأدبية، والجغرافية، والتاريخية، والعلمية، والمعمارية. ثم عرضت الدراسة لدور المصدر الديني في رسم وتحديد مسار بداية الفكر المعماري العربي الإسلامي كمشروع فكري قيد التأسيس، وبينت الدراسة الطروحات الخمسة التي حكمت مسار المشروع وهي: الطرح الديني، والاجتماعي، والتقاني، والجمالي، والوظيفي. ثم بينت الدراسة كيف عملت المصادر الأدبية، والجغرافية، والتاريخية والعلمية، على تشكيل فكر المشروع. ثم بينت الدراسة كيف انتقل هذا المشروع من مرحلة التشكل في المصادر السابقة، إلى مرحلة تكوين المشروع كظاهرة، أو منظومة فكرية، في المصادر المعمارية. فبدايته واعية، وتشكله ممنهج وعقلاني، وتكوينه علمي منتظم.

وخلصت الدراسة إلى أن الفكر المعماري العربي الإسلامي شمولي المحتوى، مستقل بذاته، ومحص بقدراته، له حضوره المعاصر بالرغم من محاولات تغييبه، ولكن ينقصه الاعتراف ويعوزه التوظيف من الأكاديميين والممارسين العرب.

الشكل (رقم – ١)
رسم توضيحي لنظرية المثلث القائم الزاوية علـى قرص من الطين – الحضارة البابلية 1600 ق.م.

الصورة (رقم – ١)
رسم توضيحي لنظرية المثلث القائم الزاوية علـى قرص من الطين – الحضارة البابلية 1600 ق.م.

نقلاً عن: The Beginning of Architecture

نظرية المثلث القائم الزاوية
مساحة المربع أ ب ج د = (أ ب)^2 = (أ هـ)^2 + (ب هـ)^2
مساحة المربع أ ب ج د = (أ ب)^2 = (ب ج)^2 = (د ج)^2 = (أ د)^2 = أ ب × ب ج = أ د × ج د
مساحة المربع أ ب ج د = مساحة المثلثين :أ ب ج + أ ج د = أ ب د + ب ج د
= أ هـ × ب د / 2 + ج هـ × ب د / 2
ولما كان قطري المربع أ ج ب د متعامدين فإنهما ينصفان بعضهما البعض
إذن: أ هـ = هـ ج = ب هـ = هـ د
مساحة المثلث أ ب د = أ هـ × ب د / 2 = أ هـ × ب هـ = (أ هـ)^2 = (ب هـ)^2
مساحة المثلث ب ج د = ج هـ × ب د / 2 = ج هـ × ب هـ = (ب هـ)^2 = (ج هـ)^2
مساحة المربع = مساحة المثلثين = أ ب ج + أ ج د = أ ب د + ب ج د = (أ هـ)^2 + (ب هـ)^2
أي أن مربع ضلع الوتر في المثلث القائم الزاوية = مربع طول الضلعين الأخرين.
أما نظرياً فإن المربع أ ب ج د = مساحة المثلثات الأربع المكونة له، وهذا ما قصد بتوضيحه في الرسم من قبـل البابليين

صورة (رقم — ٢)
الملك السومري والمعمار كوديا
٢١٤٤-٢١٢٤ ق. م. يتفحص مخططاً لمعبد لكش ، بلاد الرافدين (العراق)
نقلاً عن: The Beginning Of Architecture

شكل (رقم — ١٤أ)
الذراع وحدة القياس في الحضارة المصرية القديمة (أصل المقياس الإنساني)

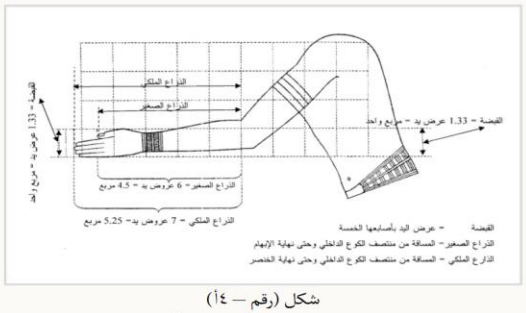

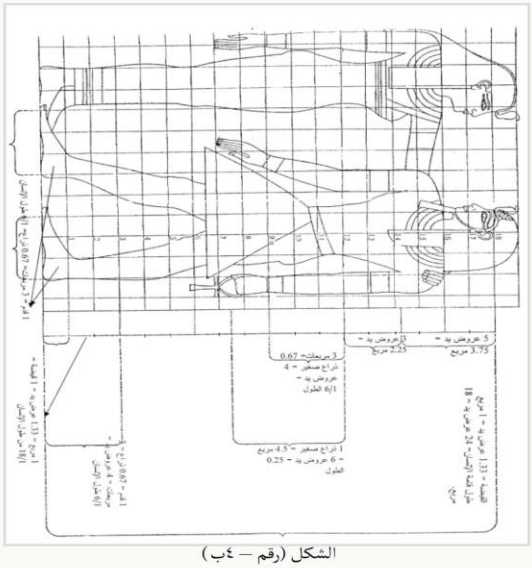

الشكل (رقم — ١٤ب)
المقياس الإنساني في الحضارة المصرية القديمة

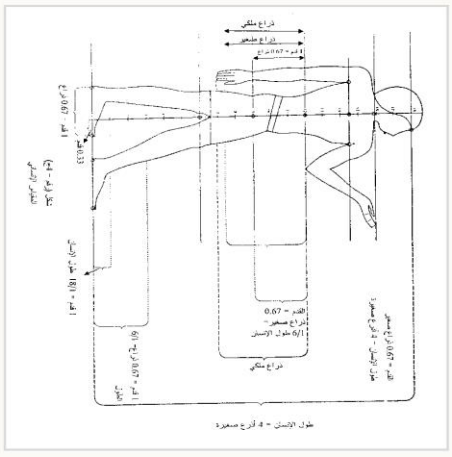

الشكل (رقم – ٢)
رسم توضيحي للصورة ، التي اكتشفت أمام هرم سوزر
منطقة سقارة – الجيزة ٢٨٠٠ ق.م.
نقلاً عن: Design In Architecture

الصورة (رقم – ٣)
الصورة لرسم على الحجر الجيري بطول ١٨٠ سم يمثل منحنى بالإحداثيات
نقلاً عن: Design In Architecture

شكل (رقم – 3)
القطاع الذهبي
نقلاً عن: The Beginning of Architecture

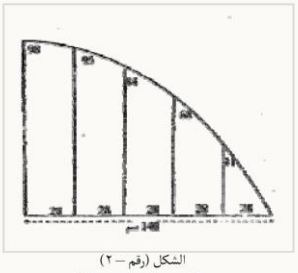

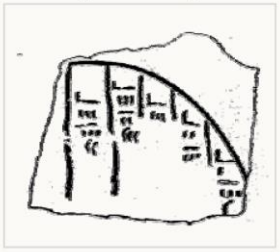

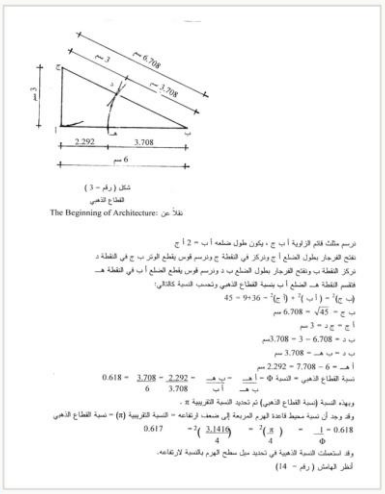

نرسم مثلث قائم الزاوية أ ب ج ، يكون طول ضلعه أ ب = 2 أ ج
نفتح الفرجار بطول الضلع أ ج ونركز في النقطة ج ونرسم قوس يقطع الوتر ب ج في النقطة د
نركز النقطة ب ونفتح الفرجار بطول الضلع ب د ونرسم قوس يقطع الضلع أ ب في النقطة هـ
فتقسم النقطة هـ الضلع أ ب بنسبة القطاع الذهبي ونحسب النسبة كالتالي:
(ب ج)^2 = (أ ب)^2 + (أ ج)^2 = 36+9 = 45
ب ج = $\sqrt{45}$ = 6.708 سم
أ ج = ج د = 3 سم
ب د = 6.708 – 3 = 3.708سم
ب د = ب هـ = 3.708 سم
أ هـ = 6 – 7.708 = 2.292 سم
نسبة القطاع الذهبي = النسبة Φ = أ هـ / ب هـ = ب هـ / أ ب = $\frac{2.292}{3.708}$ = $\frac{3.708}{6}$ = 0.618
وبهذه النسبة (نسبة القطاع الذهبي) تم تحديد النسبة التقريبية π .
وقد وجد أن نسبة محيط قاعدة الهرم المربعة إلى ضعف ارتفاعه = النسبة التقريبية (π) = نسبة القطاع الذهبي
0.618 = $\frac{1}{\Phi}$ = $(\frac{\pi}{4})^2$ = $(\frac{3.1416}{4})^2$ = 0.617
وقد استعملت النسبة الذهبية في تحديد ميل سطح الهرم بالنسبة لارتفاعه.
أنظر الهامش (رقم – 14)

الشكل (رقم – ٥)
رسم لشبكية لتصميم حديقة أمام معبد الدير البحري ، بمصر ، ٢١٠٠ ق.م.
نقلاً عن: Design In Architecture

الصورة (رقم – ٤)
صورة للمكتشفات الآثارية المعمارية المنسوبة لقوم عاد من العرب البائدة
منطقة الأحقاف - عُمَان

الصورة (رقم – ٥)
صورة للمكتشفات الآثارية المعمارية المنسوبة لقوم عاد من العرب البائدة
منطقة الأحقاف - عُمَان

الصورة (رقم – ٦)
صورة للمكتشفات الآثارية المعمارية المنسوبة لقوم عاد من العرب البائدة ، منطقة الأحقاف – عُمَان

الصورة (رقم — ٧)
صورة للمكتشفات الأثارية المعمارية المنسوبة لقوم عاد من العرب البائدة
منطقة الأحقاف - عُمان

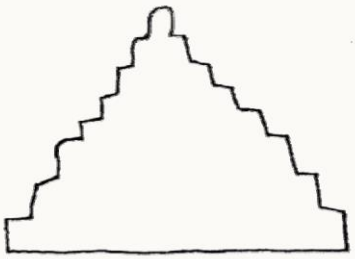

شكل (رقم — ٨)
واجهة الهرم المدرج
نقلاً عن كتاب الفرناطي . (٤٧٣-٥٦٥هـ/١٠٨٠-١١٧٠م)
تحفة الألباب ونخبة الاعجاب . الرسم كما جاء بالمخطوط

الصورة (رقم —٨)
تكوين الصورة بالغرفة المظلمة- الحسن بن الهيثم القرن ٥/٤ هـ — ١١/١٠ م
بداية اختراع آلة التصوير
(نقلا عن 1001 Inventions)

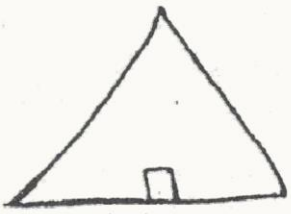

شكل (رقم - ٩)
واجهة الهرم الأملس
نقلاً عن كتاب الفرناطي . (٤٧٣-٥٦٥هـ/١٠٨٠-١١٧٠م)
تحفة الألباب ونخبة الاعجاب . الرسم كما جاء بالمخطوط

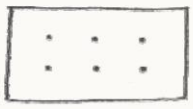

شكل (رقم-٦)
مسقط أفقي للكعبة
نقلاً عن مخطوط أخبار مكة (٢٥٠هـ-٨٦٤م). والرسم كما جاء بالمخطوط

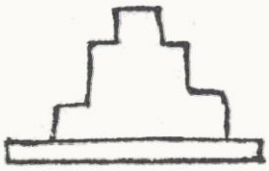

شكل (رقم — ١٠)
واجهة مسلة عين شمس
نقلاً عن كتاب الفرناطي . (٤٧٣-٥٦٥هـ/١٠٨٠-١١٧٠م)
تحفة الألباب ونخبة الاعجاب . الرسم كما جاء بالمخطوط

شكل (رقم - ٧)
مسقط يوضح الموقع العام للكعبة ولمدينة مكة واتجاه القبلة للعالم
نقلاً عن كتاب القزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ/١٢٠٣-١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد

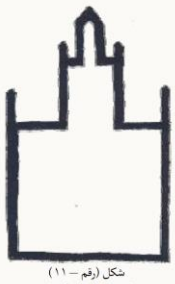

شكل (رقم — ١١)
واجهة منارة الإسكندرية
نقلاً من كتاب القزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ/١٢٠٣-١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد

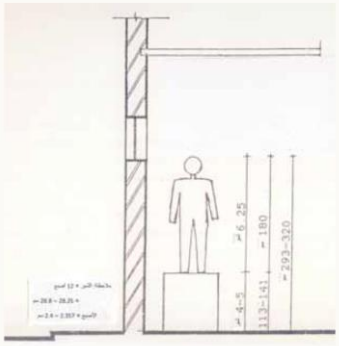

شكل (رقم — ١٢)
قطاع يوضح ارتفاع الكوى (الشبابيك) بين الدور

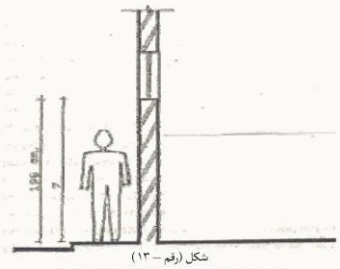

شكل (رقم — ١٣)
قطاع يوضح ارتفاع الكوى (الشبابيك) المطلة على الطريق

الهوامش:

(1) نخص منهم جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، رفاعة رافع الطهطاوي، أحمد فارس الشدياق، الكواكبي، محمد بيزم الخامس التونسي وغيرهم. أنظر: زيدان، جرجي، مشاهير الشرق، جزءان، دار الحياة للنشر، بدون تاريخ نشر، بيروت.

(2) أقدم هذه الجامعات هي الجامعة المصرية التي أنشأت سنة 1908م، والتي أصبحت فيما بعد جامعة القاهرة، ثم توالت الجامعات العربية في النشوء في سوريا والعراق وباقي الأقطار العربية. إضافة إلى الجامعة الأمريكية- بيروت التي أنشأت قبل جامعة القاهرة.

(3) انظر، بديع، دكتور، (2009م) الفكر المعماري العربي الإسلامي- التفسير التاريخي، مجلة المدينة العربية، منظمة المدن العربية، العدد 143، آذار- حزيران، الكويت، ص ص: 34- 59.

(4) انظر" العابد، بديع، دكتور، (2000)، ثقافة المعماري وأثرها في تحديد الهوية المعمارية، مجلة اتحاد الجامعات العربية للدراسات والأبحاث الهندسية، كلية الهندسة، جامعة بغداد، المجلد 27 عدد2، ص ص: 1- 41. أعيد نشره في مجلة المدينة العربية، منظمة المدن العربية، العددين: 140، 141، الكويت، ص ص: 13-30، 50-61.

(5) انظر: العابد، الفكر المعماري العربي الإسلامي- التفسير التاريخي، مرجع سابق.

(6) انظر: المرجع السابق.

(7) See: Creswell, K.A.C. (AD 1979), Early Muslim Aechiecture, 2vols, 2nd edition, Hacker Art Books, N.Y.

See: Grabar, O. (Ad 1985), The Formation of Islamic Art, Yale Univesrity Press New Haven, USA.

(8) See, Jencks, C.(1977), The Language of Post- Modern Archiecture, Rizzoli USA.

(9) See: Tigerman, S. (1989), construction, (De) Construction, (Re) Construction Architectural Antinomies and a (Re) newed Beginning Ad, Vol.58, No1/2, PP. 76-81.

المسيري، عبد الوهاب، (دكتور)، (1999م)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 8أجزاء، دار الشروق، القاهرة، ج5/186، 415- 444.

(10) قسم المؤرخ محمد عزة دروزة التاريخ العربي إلى ثلاثة أطوار: الطور الأول ما قبل العروبة الصريحة، وهو الطور الذي لم تكن فيه اللغة العربية الفصحى مستعملة، ويشمل الساميون، ويعتبر الكلدانيون أقدم موجة هاجرت من جنوب جزيرة العرب، والطور الثاني، طور العروبة الصريحة قبل الإسلام، وذلك لأن اللغة العربية الصريحة (الفصحى) غدت لغة شعوب هذا الطور سواء من بقي منهم في جنوب الجزيرة العربية، أو من هاجر إلى الشمال. والطور الثالث هو طور العروبة الصريحة في الإسلام. انظر: دروزة، محمد عزة، (1959م)، تاريخ الجنس العربي، 13 جزءا، المكتبة العصرية، صيدا- لبنان، ج8/1.

(11) See: Giedion, S. (1964), The Beginnings of Architecture, Princetion university Press, N.J., USA, PP: 472-474.

(12) See: Broadbent, G., (1981), Design In Architecture, The Pitman Press, bath, England, PP: 30-35.

(13) See: Giedion, S. (1964), former reference, PP.113-116.

See: Giedion, S. (1964) former refernce, PP. 482- 492.

See: Broadbent, G., (1981) former reference, PP 30-36.

(14) See Siedion. S. (1964), former refernce, P.477.

(15) انظر: العابد، بديع (دكتور)، (2005)، الفكر المعماري عند إخوان الصفا، مجلة المدينة العربية، العدد122، يناير/ فبراير، الكويت، ص ص: 39- 43.

(16) انظر: البغدادي، عبد اللطيف، (557- 629هـ/ 1161-1231م)، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان سبانو، 1983م، دار قتيبة دمشق، ص ص: 57- 58.

(17) انظر: الأزرقي، أبو الوليد، المتوفي، (250هـ-846م)، أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، جزءان، تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس، 1983م، بيروت، ج2/ 258. انظر: الحموي، ياقوت، (625هـ/1227م)، معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، (1397هـ- 1977م)، بيروت، ج5/ 186.

(18) انظر: ديلابورانت، ل.، بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال، مكتبة الآداب، القاهرة، ص: 135- 138.

(19) انظر: المرجع السابق، ص- 135.

(20) انظر: المرجع السابق، ص-136.

(21) انظر: المرجع السابق، ص-136.

(22) انظر: المرجع السابق، ص-136.

(23) انظر: المرجع السابق، ص-136.

(24) هناك مدرستان تاريخيتان، الأولى تقول بعروبة الساميين، وأن التاريخ العربي ابتدأ مع الهجرات السامية. ويتبنى هذه المدرسة المؤرخ محمد عزة دروزة، والثانية مرة تعتبر الساميين عربا ومرة تحدد بداية التاريخ العربي بحوالي 200- 300سنة قبل الإسلام. والباحث يتبنى المدرسة الأولى. وتتفق المدرستان على تصنيف العرب إلى: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة. انظر: دروزة، محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، مرجع سابق، ج8/1. انظر: علي، جواد، (1976)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 100 أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت ودار النهضة، بغداد، ج3/1، 222-509.

(25) انظر: القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيات: 77، 130، 133. هود الآيات: 66-67، 81-82 الفرقان: الآية 37. الفجر، الآيات: 6-10.

(26) انظر: علي جواد، مرجع سابق، ج345/1.

(27) انظر: المرجع السابق، ج299/1- 300.

(28) انظر: القرآن الكريم، الفجر، الآيات: 6-10.

(29) انظر: علي، جواد، مرجع سابق، ج1/ 302- 310.

(30) انظر: المسعودي، (متوفي 346هـ- 957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4أجزاء، تدقيق وفهرست يوسف داغر، ط4، ص(1401هـ- 1981م) دار الأندلس، بيروت، ج2/16- 176.

(31) انظر: الهمداني، الحسن، المتوفى (350هـ- 962م)، الإكليل، 10أجزاء، دار الكلمة صنعاء، ودار العودة بيروت، للأعمال المعمارية لهذه الحضارات، انظر: ج8.

(32) انظر: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج2/ 94-99.

(33) انظر: دروزة، محمد عزة، (1959م)، تاريخ الجنس العربي، مرجع سابق، ج8/1.

(34) انظر: وردت هذه الأقسام في شعر كل من: المفضل الضبي، ولبيد بن ربيعة، وطرفة، وابنبراقة الشمالي، وعمرو بن كلثوم، وأبي دؤيب، وعبد يغوث، وغيرهم. انظر: البكري، أبو عبيد، المتوفي، (487هـ-1094م)، معجم ما استعجم، 4أجزاء، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتاب، بدون تاريخ نشر، بيروت، ج1/ 1-89.

(35) انظر: الهمداني، الحسن المتوفي، (350هـ/ 962م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع الحوالي، الرياض، 1974، ص ص: 57-59. المقدسي، البشاري، (335- 390هـ/ 946-1000م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، M.J.DeGoeje، ط2، أبريل، ليدن، هولندا، (1906م)، ص67.

(36) انظر: الهمداني، الإكليل، مرجع سابق، دار الحرية، 1977م، بغداد، ج 1/177- 190. ابن خلدون، (732- 808هـ/ 1332- 1406م)، تاريخ ابن خلدون، 7 أجزاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1971م، بيروت، ج2/ 18-21. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج2/294، ص354-433.

(37) انظر: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج2/ 48-65. بافقيه، محمد، (1973م)، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ص: 27- 145.

(38) انظر: الهمداني، الإكليل، مرجع سابق، ج8.

(39) بعض الجغرافيين العرب، يعتبرون: العراق، وسوريا، وفلسطين، أجزاء من الجزيرة العربية. انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ص: 3- 7. البكري، معجم ما استعجم، مرجع سابق، ج7/1.

(40) ذكر الأطلال، أحد أغراض الشعر الجاهلي، ويعرف بالنسيب والتشبيب. انظر ابن قتيبة، (213- 276هـ/ 828- 889م)، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، 1984م، بيروت، ص ص: 31- 33.. ابن رشيق، (390- 456هـ/ 1000- 1064م)ـ العمدة، جزءات، تحقيق محمد عبد الحميد، دار الجليل، ط4، 1972م، بيروت، ج120/1.

(41) انظر: المرجعان السابقان.

(42) انظر: زيدان، جرجي، (1957م)، تاريخ آداب اللغة العربية، 5أجزاء، دار الهلال، القاهرة، ج1/ 134. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج9/ 449.

(43) انظر: التبريزي، الخطيب، المتوفى، (502هـ- 1108م)، اختيارات المفضل الضبي، جزءان، تحقيق فخر الدين قباوة، منشورات مجمع اللغة العربية، 1973م، دمشق، ج2/ 969.

(44) انظر: الهمداني، الإكليل، مرجع سابق، ج17/8.

(45) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج2/ 96-97.

(46) انظر: الهمداني، الإكليل، مرجع سابق، ج8/ 10-11.

(47) انظر: الهمداني، الإكليل، مرجع سابق، ج19/8/.

(48) انظر: المرجع السابق، ج19/8.

(49) انظر: المرجع السابق، ج29/8، 4، 116.

(50) انظر: المرجع السابق، ج17/8.

(51) انظر: المرجع السابق، ج8/ 14.

(52) انظر: المرجع السابق، ج13/8-14، 35-36.

(53) انظر: المرجع السابق، ج5/8.

(54) انظر: المرجع السابق، ج13/8-14، 35-36.

(55) انظر: العابد، بديع (دكتور)، (1415هـ- 1994م)، الفكر المعماري العربي، جذوره وأبعاده، المدرسة الآثارية، العواصم والمدن الإسلامية، عدد رقم 22، ص59-78.

(56) انظر: ابن رشيق، العمدة، مرجع سابق، ج1/ 218.

(57) البحث هو المدرسة الآثارية، مرجع سابق، ص ص: 59- 78.

(58) انظر: منقذن أسامة، (486- 584هـ/ 1093- 1188م)، المنازل والديار، جزءان، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، (1385هـ- 1965م)ـ دمشق. البكري، معجم ما استعجم، مرجع سابق، ج1/ 1-90. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، مداخل حروف: الباء، الدال، الراء، العين، الميم، النون.

(59) انظر: ذكرت جميع هذه الأماكن في المراجع السابقة.

(60) ذكرت جميع الدارات في المصادر السابقة، وأفرد لها الأصمعي كتابا خاصا بعنوان الدارات. انظر: الأصمعي، عبد الملك، (121- 216هـ/ 740-831)، الدارات، مجلة المشرق، العدد الأول، 1898م، بيروت، ص ص: 24-32.

(61) انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، مرجع سابق، ص: 55- 428. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج2/ 48- 65. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مرجع سابق، الحموي، معجم البلدان، مرجع سابق.

(62) انظر: المراجع السابقة.

(63) انظر: المراجع السابقة.

(64) See: Said, E, (1978), beginning Intention and method, The Johns Hopkings University Press.

(65) انظر: القرآن الكريم: البقرة، الآية: 30.

(66) انظر: القرآن الكريم: البقرة، الآية: 36.

(67) انظر: القرآن الكريم: المؤمنون، الآية: 27. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج2/94- 110.

(68) انظر: القرآن الكريم: الفجر، الآيات: 6-10.

(69) انظر: القرآن الكريم: النمل، الآيتان: 22-23.

(70) انظر: القرآن الكريم: النحل، الآية: 12.

(71) انظر: القرآن الكريم: النحل، الآيتان: 80-81.

(72) انظر: القرآن الكريم: التوبة، الآية: 109.

(73) انظر: القرآن الكريم: الحجر، الآية: 82.

(74) انظر: قطب، سيد، (1980)، التصوير الفني في القرآن الكريم، ط9، دار المعارف، القاهرة، ص ص: 34- 61.

(75) انظر: المرجع السابق.

(76) انظر: ابن حجر العسقلاني (773-852هـ/ 1371- 1448م)، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 3 أجزاء، المطبعة العصرية، 1972م، الكويت ج3/202.

(77) انظر: الزركشي، (745- 794هـ/ 1344- 1492م)، إعلام المساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا المراغي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1982م، القاهرة، ص ص: 226- 275.

(78) انظر: المرجع السابق

(79) انظر: المرجع السابق

(80) انظر: الطبري، (224-310هـ/ 839- 923م)، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، 11 جزءا، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، 1977م، القاهرة، ج3/ 590- 597. انظر: سلمان، عيسى وآخرون، (1982م)، العمارة العربية الإسلامية في العراق، دار الرشيد، بغداد، ص ص: 45- 67.

(81) انظر: ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص347.

(82) انظر: الجاحظ، (150- 255هـ/ 767- 896م)، كتاب الحيوان، 7أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1938م، القاهرة، ج/ 72.

(83) انظر: المرجع السابق، ج1/731-75.

(84) انظر: الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، الشركة اللبنانية للكتاب، بدون تاريخ نشر، بيروت، ص-40.

(85) انظر: المرجع السابق، ص-40.

(86) انظر: المرجع السابق، ص-40.

(87) انظر: المرجع السابق، ص-40.

(88) انظر: الجاحظ، البخلاء، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ نشر، بيروت، ص ص: 64- 72.

(89) انظر: ابن قتيبة، عيون الأخبار، 4 أجزاء، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ نشر، بيروت، ج1/ 313.

(90) انظر: المرجع السابق، ج1/ 312.

(91) انظر: المرجع السابق، ج1/ 311.

(92) انظر: المرجع السابق، ج1/ 311.

(93) انظر: ابن رشيق، العمدة، مرجع سابق، ج1/121.

(94) انظر: الهامشين رقم: 35- 39.

(95) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مرجع سابق، ص90.

(96) انظر: المرجع السابق، ص-9.

(97) انظر: المرجع السابق، ص ص: 156- 159. ابن بطوطة، (757هـ- 1356م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتاب اللبناني، بدون تاريخ نشر، بيروت، ص ص: 61، 79، 90.

(98) انظر: ابن سينا، (370- 428هـ/ 981- 1037م)، القانون في الطب، 5 أجزاء، تحقيق ادوارد القس، عز الدين للنشر، 1987م، بيروت، ج1/ 122- 128.

(99) انظر: المرجع السابق، ج1/ 122- 128.

(100) انظر: المرجع السابق، ج1/ 128.

(101) انظر: إخوان الصفا، (القرن4هـ- 10م)، رسائل إخوان الصفا، 4أجزاء، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بدون تاريخ نشر، بيروت، ج1/ 97- 108.

(102) انظر: المرجع السابق، ج1/ 252.

(103) انظر: ابن الهيثم، الحسن، (354- 432هـ/ 965- 1041م)، كتاب المناظر، المقالات: 1-3، تحقيق عبد الحميد صبرا، منشورات المجلس الوطني للثقافة، 1983م، الكويت، ص: 216-338.

(104) انظر: المرجع السابق، ص: 230- 338.

(105) انظر: المرجع السابق، ص243.

(106) انظر: المرجع السابق، ص- 243.

(107) انظر: الأزرقي، أخبار مكة، مرجع سابق، جزءان، باسلامة، حسين، (1400هـ- 1980م)، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط3، تهامة للنشر، جدة، باسلامة، حسين، (1402هـ/1984م)، تاريخ الكعبة، ط2، تهامة للنشر، جدة.

(108) انظر: الزركشي، إعلام المساجد بأحكام المساجد، مرجع سابق.

(109) انظر: السيوطي، شمس الدين، (813- 880هـ/ 1410- 1475م)، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، جزءان، تحقيق الدكتور أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، القاهرة.

(110) انظر الأزرقي، أخبار مكة، مرجع سابق، ج1/ 167.

(111) انظر: القزويني، زكريا، (600- 682هـ/ 1203-1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بدون تاريخ نشر، بيروت، ص: 115.

(112) انظر: السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مرجع سابق، ج1/ 241.

(113) انظر: الهامش رقم 35.

(114) انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مرجع سابق.

(115) انظر: البكري، معجم ما استعجم، مرجع سابق. الحموي. ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق.

(116) انظر: زيات، حبيب، (1983م)، الديارات النصرانية في الإسلام، مجلة الشرق، عدد، تموز- أيلول، السنة 36، ص 289- 417. الأصبهاني، أبو الفرج، (284-356هـ/ 898- 967م)، الديارات، تحقيق جلال عطية، دار رياض الريس، لندن، ص: 27-31.

(117) انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مرجع سابق، ج2/ 225-256.

(118) انظر: المرجع السابق، ج2/ 387- 392.

(119) انظر: البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مرجع سابق.

(120) انظر: الغرناطي، شهاب الدين، (473- 565هـ/ 1080- 1170م)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني، رقم 3127. حقق المخطوط د. إسماعيل العربي، ونشرته دار الجيل بيروت. ولكن الكتاب المحقق يخلو من الرسومات. كما يوجد تصحيف باسم المؤلف، ففي الكتاب المحقق اسمه عبد الرحيم الغرناطي!؟ والرسومات نقلت عن المخطوط.

(121) انظر: زيات، حبيب، الديارات النصرانية في الإسلام، مرجع سابق، ص: 293.

(122) انظر القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مرجع سابق، ص146.

(123) قضى البيروني 40عاما في الهند، درس خلالها علومهم وفنونهم، ولغاتهم انظر: البيروني، (362- 440هـ/ 973-1048م)، الآثار الباقية من القرون الخالية، طبع في ليبنزغ، 1978. البيروني، كتاب في تحقيق ما للهند من مقولة للعقل مقبولة أو مرذولة، دائرة المعارف العثمانية 1958م، حيدر أباد، الهند.

(124) انظر: الهمداني، الإكليل، مرجع سابق، ج8.

(125) انظر: ابن قدامة، موفق، (630هـ- 1232م)، المغني والشرح الكبير، 12جزءا، 14 مجلدا، تحقيق مجموعة من العلماء، دار الكتاب العربي، 1403هـ- 1983م، بيروت، ج8/ 33-53.

(126) انظر: ابن دينار، عيسى، المتوفى (212هـ-827م)، كتاب الجدار، مفقود، التطيلي، عيسى بن موسى، المتوفى (386هـ-966م)، كتاب الجدار، مخطوط محفوظ بدار الكتب الوطنية، بتونس، رقم 15227.

(127) انظر: ابن الرامي، المتوفي (734- 1333م)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق الباحث عبد الرحمن بن صالح الأطرم، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1403هـ- 1983م.

(128) انظر: مجلة الأحكام العدلية، (1286هـ- 1865م). المادة 87.

(129) انظر: ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، مرجع سابق، ص ص: 7-83.

(130) انظر: المرجع السابق، ص ص: 97- 103.

(131) انظر: المرجع السابق، ص ص: 104- 105.

(132) انظر: المرجع السابق، ص ص: 107-117.

(133) انظر: المرجع السابق، ص- 192.

(134) انظر: المرجع السابق، ص ص: 123- 140.

(135) انظر: المرجع السابق، ص- 124.

(136) انظر: المرجع السابق، ص-125.

(137) الشبر= 28.248سم. ارتفاع السرير= 4× 28.248= 113سم، أو 5× 28.248= 141.24سم. متوسط ارتفاع السرير= 113+ 141.24= 127.12سم= 120سم. ارتفاع جلسة الشباك= ارتفاع السرير+ طول قامة الرجل= 120+ 180= 3.00م: انظر: المرجع السابق، ص-124.

(138) يكون ارتفاع الجلسة= 7أشبار× 28.248= 198سم. انظر: المرجع السابق، ص-125.

(139) انظر: المرجع السابق، ص ص: 400-406.

(140) انظر: ابن قتيبة (213- 276هـ/ 828-889م)، كتاب الجراثيم، باب كتاب الرجل والمنزل، مخطوط محفوظ بالمكتبة الظاهرية، ونشر كتاب الرحل والمنزل، بمجلة المشرق، المجلد11، 1908م، ص ص: 440-453.

(141) انظر: المرجع السابق، ص-444.

(142) انظر: المرجع السابق، ص-446.

(143) انظر: المرجع السابق، ص-446.

(144) انظر: المرجع السابق، ص448.

(145) انظر: المرجع السابق، ص-446.

(146) انظر: المرجع السابق، ص-449.

(147) انظر: المرجع السابق، ص ص: 450-5451.

(148) انظر: الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، مرجع سابق، ص ص: 86- 92.

(149) انظر: مجلة الأحكام العدلية، مرجع سابق، المادة 21.

(150) انظر: الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، مرجع سابق، ص ص: 86-92.

(151) انظر: المرجع السابق، ص-89.

(152) انظر: المرجع السابق، ص-88.

(153) انظر: المرجع السابق، ص-57.

(154) وردت أسماء هذه المؤلفات في كتاب الكوكباني، حدائق النمام في الكلام على ما يتعلق بالحمام. انظر: الكوكباني، أحمد، المتوفى، (1153هـ- 1740م)، حدائق النمام في الكلام على ما يتعلق بالحمام، تحقيق عبد الله الحبشي، الدار اليمنية للنشر، ط1406هـ- 1986م، ص ص: 9-11.

(155) انظر: المرجع السابق، ص-91.

(156) انظر: المرجع السابق، ص-96.

(157) انظر: المرجع السابق، ص96.

(158) انظر: المرجع السابق، ص-35.

(159) انظر: المرجع السابق، ص-36.

(160) انظر: المرجع السابق، ص-37.

(161) انظر: المرجع السابق، ص-39.

(162) ورد اسم هذا الكتاب في مؤلف الكوكباني، ولم يشر المحقق إلى مكان وجوده، ص-90.

(163) ورد اسم هذا الكتاب في مؤلف الكوكباني، ولم يشر المحقق إلى مكان وجوده، ص-9.

(164) وردت هاتان الوثيقتان في كتاب تاريخ البيمارستانات في الإسلام. انظر: عيسى، أحمد، (1401هـ- 1981م)، تاريخ البيمارستات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ص ص: 134- 158.

(165) انظر: المرجع السابق، ص ص: 134- 139

(166) انظر: المرجع السابق، ص- 139

(167) انظر: المرجع السابق، ص-152

(168) انظر: ابن الرامي، الإعلان بأحكام البيان، مرجع سابق، ص-143.

(169) انظر: المرجع السابق، ص ص: 388- 397.

(170) انظر: المقريزي ، أحمد، (776- 845هـ/ 1364-1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار صادر، بدون تاريخ نشر، بيروت.

(171) انظر: المرجع السابق، ج1/14-18، 50-72.

(172) انظر: المرجع السابق، ج1/123.

(173) انظر: المرجع السابق، ج1/50-68، 100-111.

(174) انظر: المرجع السابق، ج1/72-74

(175) انظر: المرجع السابق، ج1/72-74، 128-250.

(176) انظر: المرجع السابق، ج1/100-124.

(177) انظر: المرجع السابق، ج1/ 348- 383.

(178) انظر: المرجع السابق، ج1/383-408، 363-464.

(179) انظر: المرجع السابق، ج2/2-23.

(180) انظر: المرجع السابق، ج2/23-36.

(181) انظر: المرجع السابق، ج2/45-46.

(182) انظر: المرجع السابق، ج2/ 86-91.

(183) انظر: المرجع السابق، ج2/ 94- 107.

(184) انظر: المرجع السابق، ج2/114-120.

(185) انظر: المرجع السابق، ج2/189-197.

(186) انظر: المرجع السابق، ج1/465-490.

(187) انظر: المرجع السابق، ج2/47-51.
(188) انظر: المرجع السابق، ج2/152- 165.
(189) انظر: المرجع السابق، ج2/44.
(190) انظر: المرجع السابق، ج2/37-44.
(191) انظر: المرجع السابق، ج2/ 197-200.
(192) انظر: المرجع السابق، ج2/146-151.
(193) انظر: المرجع السابق، ج2/165-170
(194) انظر: المرجع السابق، ج2/244-331
(195) انظر: المرجع السابق، ج2/414-426.
(196) انظر: المرجع السابق، ج2/430-436.
(197) انظر: المرجع السابق، ج2/ 464.
(198) انظر: المرجع السابق، ج2/170
(199) انظر: المرجع السابق، ج2/362- 403.
(200) انظر: المرجع السابق، ج2/405-408
(201) انظر: المرجع السابق، ج2/79-85.
(202) انظر: المرجع السابق، ج2/91-94.